www.awu-dam.org

الأسبوع الأدبي

عدد خاص بأدب الأطفال

جريدة تعنى بشؤون الأدب والفكر والفن
تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد «1300» 2012 /6/16 م - 27رجب 1433هـ
السنة السادسة والعشرون

٢٤ صفحة - السعر: ١٥ ل.س

اطلب مع العدد
ملحق الأطفال
العدد «٨»
مجاناً

الوطن ملاذ الروح

أمّة اقرأ

ملف العدد:
أدب الأطفال

وظائف أدب الأطفال

عن الكتابة للأطفال

أدب الأطفال في مناهجنا التعليمية

أدب الأطفال .. هذا الوجه الضّائع!

القراءة والطفل

مسرح الطفل في سورية بين الواقع والطموح

اللوحة للفنان التشكيلي يوسف عقيل

الوطن ملاذ الروح

خلف عامر

قفزت قصيدة إلى ذاكرتي، فكنت أنت القصيدة وجرسها الموسيقي الذي يدق في روحي لحن محبة ووفاء، لأنك موسيقى الأغنيات المترفة بفيض الأمنيات الحالمات بطيب حكاياتك، التي تنتظرها أغصان قلبي بلهفة الغائب العائد لحضن أمه، فتورق وتثمر وتراقص أطيافك الساحرة الآسرة متوحدة مع نسائمك الندية العذبة.

فيا وطني يا ملاذ أحلامي، أريدك شمساً وقمراً وضياء، أريدك دفئاً يتسلل إليّ يدغدغ خلايا روحي، أريدك ثوباً جميلاً يقيني حراً وقراً، أريدك موجاً يداعب رمال روحي، يزرع فيّ أحلى الحكايا التي تشدني إليك.

قال الوطن:»هذا ما أريده، أن أكون قصيدتك العصماء».

ردّت الروح بفرح قائلة: «يكفيني يا وطني ندى لهفتك الصادقة، بيادرك، غلالك، تغريد طيورك. أسافر فيك، أسير في طرقاتك، ألازمك كيلا أشعر بوحشة، أنت أغنيتي ونشيدي، أنت ردائي الذي أنسج منه رايتي، أنثر محبتي على ورودك ندى، وعلى أرضك رهاماً وفي سمائك أنجماً.

أرجوك كن معي أحتاج إليك تفيض عليّ حناناً، يا يمامة الروح.

طر بي إلى دروب عمرك، تضاريسك العابقة بالطيب والجمال والأمان ودعني أتأمل جمالها، وأصلي في محرابك.

أتدري لِم أتشبث بك ؟! لأنك هويتي وانتمائي وروعة أحلامي.

في الحلم دائماً نكون معاً، أسمع هديل روحك، وأقلب دفاتر ذاكرتي بحثاً عن مفردات لا تليق إلاّ بك. وعزائي الوحيد أن روحينا معاً.

فأنت الروح ونبض القلب و أنت أنت أنت...

أنت أغنية الصباح تهل فتزرع في عمري أقحوانات الحياة».

ضَحِكَ الوطن وطرّز أيامي بأقحوان وقرنفل وياسمين.

ومن يومها عجّت روحي بعطور الدنيا وعرفت معنى الحياة.

قلت: «أعطيتني وأجزلت العطاء بلا منّة، وهأنذا أصلي كي تبقى لنا زادنا وماءنا، دواءنا ولهيب أشواقنا».

قال الوطن: «أما قلت لك يوماً شوقك ماء يغلي فابترد قليلاً بنسائمي».

ابتسمت الروح... ردت قائلة:»أعرف أنك ستكون لي برداً وسلاماً، لذا بنت طيور أشواقي بقلبك أعشاشها، واستوطنت آمنة مطمئنة منذ أول دفقة حنان، فانسكبت محبتك شلالات في عمري، وأزهرت روحي بطيوف ألوانك البهية.

شمس نحو دهاليز معتمة

في يوم الطفل الفلسطيني، قلوبنا معكم أيها الصغار

يسري الغول - غزة

تهب رياح الحرية مع شذرات الطفولة المترنحة، لتتغنى بها أبواق الكثيرين، فيتراقص الجميع يهللون ويكبرون في يوم الطفولة الفلسطيني، وكل طفل يحمل في قلبه شمعة من الخوف والجوع والأرق.

يأتي هذا اليوم على أنغام البنادق والقنابل، يأتينا على أصوات السموم واليحموم، ففي الضفة أب يقتل طفله ذا الخمسة أعوام، يخنقه حتى الموت في بئر من جنون، لأنه مختلف مع زوجه، والأطفال هم متنزه إفراغ الكبت، وفي غزة طفل لم يبلغ ربيعه الـ13 يموت بهدوء في بيت لاهيا متمترساً بزيه المدرسي، بعد أن قام خاطفه/خاطفوه بممارسة الرذيلة فيما يبدو، وأطفال قضوا تحت شموع الخوف في عتمة دير البلح والنار تحرقهم واحداً واحداً بلا مغيث أو رحيم، والطفولة تبكي الدم، تترنح على بوابة الحياة.

أهذه الحياة التي نريدها لأبنائنا؟ أهذا هو المستقبل المشرق الذي ينتظرهم؟ حقاً، إننا نعيش مرحلة من أخطر مراحل التاريخ الفلسطيني؛ حيث يتم تدمير الطفولة بشكل منهجي مدروس ومخطط من ساسة (فرِّق تسُد) بألوانهم وهيئاتهم المتعددة. حتى تفنى روح القوة والجرأة والعظمة المتمثلة في شخص هؤلاء الأطفال. ونحن (الآباء) نعمل بكل صلافة على تدعيم هذه الجرائم بقسوتنا على أطفالنا، بحرمانهم حق السؤال واللعب، لا لشيء سوى أننا نريد النوم/ الموت، لنرتاح من همّ الانقسام/البطالة/ الفقر/ الكهرباء.

فقبل يومين، وبينما كنت أسير في طريق عام متجهاً نحو غاية أريدها، فاجأتني امرأة تجر بين يديها أربعة من أبنائها الصغار عائدة بهم من الحضانة إلى منزلها، فتضرب هذا وتجر تلك، وترفع الطفلة ذات الثلاثة أعوام من شعرها وكأنها مُخدّرة تحت تأثير غزة، وأنا لا حول لي ولا قوة سوى التوقف لمشاهدة بقية المشهد، محاولاً أن أجد حلاً لا يؤذيني، في وجود مجتمع لا يسمح لي حتى بالطلب من تلك المرأة أن تتوقف عن إيذاء أبنائها، واحترام مشاعر الآخرين. فأي لعنة هذه التي تحاصرنا. أي جنون هذا الذي يقتلنا ألف ألف مرة، إنها غزة بكل قسوتها تفجرنا، تدمينا، تقتلنا، تفجرنا وتُفنينا.

لقد كنا نتغنى بما يعانيه أبناؤنا من بطش المحتل الغاشم، من الرعب المخيم على قلوبهم، والخوف الجاثم على صدورهم، نرقص على تهاويم عمالة الأطفال التي انتشرت بكثرة هذه الأيام، على أغنية التسول في الطرقات، على جنون مخلفات الاحتلال وبتر الأضلاع وغزة تئن على طفولة غابت عنها الشمس.

أي لعنة تعيشها غزة؟! والانقسام أودى بحياتها، التفكك الأسري كحبات المسبحة المقطوعة صار يتهاوى شيئاً فشيئاً، والطفولة بينهما تنحني للريح، وتهوي في قيعان سحيقة. حتى أضحى حالنا كتلمود ملعون، والكل يهتف بالحق في الحياة، وبيوم الطفولة الفلسطيني ويوم اليتيم، نُحيي الليالي في تضاريس العتمة على القراءة والتربية التي لم يعد منها سوى الأسماء. والأطفال يستيقظون وينامون ويأكلون بلا انتظام، كحال ساعة توقفت بطارياتها، لأن أطفالنا أسرى للكهرباء، ينتظرون مشاهدة هذا المسلسل الكرتوني أو ذاك؛ إلا أن الكهرباء تحول دون رغبتهم، فيستيقظون مع أول فلاش ينير دهاليز المنزل. ونحن لا حول لنا ولا قوة سوى الموافقة، رغم أن ذلك يخالف كل تعاليم الكون. وما زلت أذكر ذلك الفلسطيني الذي تم طرده لأنه قام بملاعبة طفل تركه أبواه في المنزل الذي يقطنه معهم حتى وقت متأخر عن ميعاد نومه، فما كان من الدولة المضيفة إلا أن طردت ذلك الفلسطيني، لأنه أخل بالأمن القومي لديهم، فتغيير نظام النوم لدى ذلك الطفل يعدّ جريمة لا تغفرها القوانين والأنظمة، وأتساءل الآن: ألا يجب طرد كل مسؤول عن أزمة الكهرباء في بلادنا؟ ألا يجب لعن كل مجرم تلاعب بالشعب من أجل مكاسب سياسية لصالحه؟ ألا يجب محاكمة كل من يعنّف أبناءه بصورة قاسية وقاتلة؟ ألا يجب اعتقال من يدفعون بأبنائهم وبناتهم نحو التسول والسرقة؟ ألا يجب أن نقولها بكل صراحة، إننا لم نعد نثق بأيٍ كان؟ وبأننا نحتاج إلى الطفولة كأطفالنا العجائز، ثم من الذي سيغيثنا، إن كان أربابنا في نوم الموات؟ والطفولة تتهاوى بقيمها وروحها وآدميتها. فلا رحمة في قلوب هؤلاء، ولا رحمة في قلوبنا.

إنها دعوة لكم جميعاً في يوم الطفل الفلسطيني، أيها الحكام، أيها الآباء، أيها المربون، أيها المعلمون، أيها الساسة، أغيثوا أبناءنا بالله عليكم، ارحموهم حتى لا نندثر كعاد وثمود... والله المستعان.

أمّة اقرأ

وفاء عزيز أوغلي

** نحن أمة اقرأ..

الله طلب منا أنْ نقرأ، ومع هذا لا يقرأ إلا من يحب القراءة، ويعشق الكتب..

فالقراءة ليست فرضاً مثل الصلاة والصيام وبقية الفروض؛ لذا لا يجبر الإنسان نفسه على ممارستها، هي متعة ومصدر سعادة، ولكن لمن يقع في شباكها.

من يمارسها يفعل ذلك تلبية لرغبة داخلية لا فرار منها، ولا قدرة له على الإنفلات من سيطرتها وجبروتها.

ترى لو كانت فرضاً، لو سرح بنا الخيال وتمنينا هذه الأمنية..

سيلزم كل مسلم نفسه بالقراءة، ولو فترة من اليوم تلبية لأمر الله، فيغدو المسلمون من أفضل الأمم وأرقاها.

إذا ابتعدنا عنْ الأحلام وعدنا إلى الواقع..

* شاب متعلم مثقف، كانت أول صفة وأهمها في الزوجة وأهمها التي يريدها، أنْ لا تكون محبة للقراءة، لأنّ أمه كانت من عشاقها، كان يشعر أنّ القراءة قدْ أخذت من الوقت المخصص له في عقل أمه وقلبها ووقتها، وهو لا يريد له ولا لأولاده شريكاً في رفيقة حياته..

* قال يوسا في خطابه يوم حصل على جائزة نوبل: «القراءة فعل احتجاج وتعبير، عندما نقرأ نبحث عنْ شيء ما، عنْ عالم، أوعنْ وجود نفتقده في عالمنا «

فهل نقرأ لنحتج على واقع نحياه ولا يرضينا، وحياة نعيشها رغم أنوفنا؟

* إضافة إلى ما قاله يوسا، وما سيقوله آخرون على مر العصور، أنا أقرأ كي أشعر بالسعادة، ومثلي كثيرون..

فمصدر الهناء والبهجة لديّ - أغلب الأحيان - كتاب أشتريه وأترقب وقتاً أستطيع قراءته، قد يمضي زمن طويل قبل أن تسنح لي الفرصة، إنما ترقب قراءته يُمتعني.

لمْ اشعر يوماً بالوحدة، فالكتب تحيط بي من كل جانب، وأنا أحب قراءة أكثر من كتاب في وقت واحد، ولا بدّ من أنْ تكون الموضوعات مختلفة: كتاب مذكرات ورواية وكتاب مقالات، ولمْ تؤثر التكنولوجيا على محبتي قراءة الكتب التي غدت تسمى ورقية، رغم أنني أتعامل مع الكومبيوتر والانترنت بشكل جيد، ولا أعتقد أنّ شيئاً يؤثر على إدمان القراءة..

ومن لا يتوقف لحظة عن الحملقة في « الموبايل أو اللاب توب أوالآي باد أو الآي فون « أو أية آي أخرى، مما اخترعه ذلك الأميركي العربي الأصل من أجهزة ذات تقنيات عالية، لنْ يقرأ كتاباً، حتى لو عاد الزمان به إلى أيام ما قبل وجود أي جهاز الكتروني مرئي أو مسموع..

*غاندي قال «إنّ منْ يتذوّق القراءة الجيدة، لا تثقل عليه الوحدة في أي مكان».

وحين سجن في جنوب أفريقيا، لمْ يحزن إلا حين أخرجوه من سجنه قبل أن ينهي قراءاته، وترجمة كتاب كان قدْ أنجز معظمه.

وقال الشاعر أحمد شوقي

«أنا منْ بدّل بالكتب الصحابا

لمْ أجد لي وافياً إلا الكتابا

وسئل فولتير: «منْ سيقود الجنس البشري؟»

قال : «الذين يعرفون كيف يقرؤون ويكتبون».

ورسول حمزتوف يقول:»يجب أنْ نقسم تاريخ العالمْ إلى ما قبل ظهور الكتاب، وبعد ظهوره، الفترة الأولى ليل، والثانية نهار ساطع».

وفيكتور هوجو يرى أنّ الكتب أصدقاء هادئون ومأمونون.

** قالوا ومازالوا يقولون..

فهل ستكثر الأقوال من عدد القراء؟

لمْ تفعل يوماً، ولنْ تفعل.

فرانسيس بيكون أكد أنّ القراءة تصنع الإنسان الكامل؟ فهل يسعى إليها من يرغب في الكمال؟

وهلْ سيصدقه منْ لا يستسيغها؟

احذروا الذِّئبَ الأزرق

محمد ياسين حمودة

لقد استيقظ بعد أسبوع هذا الأصمّ الأزرق - أعني سكرتير عام عصابة الأمم المتحدة السَّاهرة على أمن العالم المتمدّن، والمشغولة ليل نهار بأرقٍ حرَمها النومَ والراحةَ من أجل الحفاظ على سلامة الشعوب ومحارِبة الإرهاب والإرهابيين في أقصى الأرض وأدناها في صحارى ومدن اليمن ونجد وتورا بورا، التي لم يسمع بها إنسانٌ من قبل - لقد استيقظ صاحبًنا هذا على صوت انفجارين في حيِّ القزاز بدمشق الصامدة والصابرة بعد أسبوع من حدوث تلك الجريمة الدوليَّة الآثمة.

أجل، لقد وصل دويُّ الانفجارين الإرهابيين إلى أذنَي المسؤول عن أمن العالم، بعد أن عبَر ذاك الصوتُ الهائلُ جبالَ قاسيون ولبنان الشرقية والغربية، ثم حلَّق فوق مياه البحر المتوسط وصقلية، ثم تابع طريقه فمرَّ من مضيق جبل طارق ليدخل في بحر الظلمات لياليَ وأياماً... حتى وصل إلى نيويورك؛ حيث قامت ناطحة السحاب العملاقة الحاضنة لمكتب الأمم المتحدة، فصدَّت ذاك الدويَّ فابتلعته لِتصبَّه في آخِر المطاف في سَمع سكرتير الأمم المتحدة المحترم نائماً كان أو قاعداً.

فحمدنا اللَّه تعالى على حسن اللقاء بعد طول سفر الخبر والعناء

إذن كان لا بدَّ لسعادته من أن يتدخل في الأمر فيتكلم، فنطق بالكلام المُباح، من دون صراخٍ أو شجبٍ... ولا استنكارٍ أو غضَبٍ فقال:

حدث انفجارٌ في دمشق... وعندي قناعة أن القاعدة كانت وراءه!!!

نعم... لقد تمخَّض الجبل فوَلد فأراً!!!

لقد خرج هذا المخلوق - بعد دهر – عن صَمته... ليُخبر العالمَ بأن لديه قناعة – نعم مجرد قناعة شخصية – فأشار بدون جدٍ إلى القاعدة، وكأنه لم يسمع بذاك الخبر القديم الجيد من قبل!

بل وكأنه لم يعلم بأن مندوبي الأمم المتحدة عاينوا الضحايا والدَّمار بعد ساعات من الانفجارين!

ثم كأنه لم ينقل إليه الخبرَ السيد كوفي سفيرُه وسفير العرب والعجم في هذا الزمن الردئ إلى سورية في مهمة دعم الاستقرار.

على أننا سمعنا قبله وزيرَ الدفاع الأمريكي قد اتهم القاعدة المشؤومة ليُبعد التهمةَ عن شركاء القاعدة الفعليين، الناشطين المشهورين، والناطقين علناً وجهاراً بالإجرام والأذى، وسمع العالم من أفواههم التهديد والوعيد ليلة التفجيرين، فبشَّروا الناس بما سيحصل في دمشق وحلب من مفاجآت سارَّة، وهم ما فتئوا يدعون وينادون بالتدخل العسكري الأجنبي في شؤون سورية، وهكذا حاول الوزير صرفَ أصابع الاتهام عن جميع أولئك المجرمين؛ بحيث تضيع المسؤولية الفعلية وتبقى الاتهامات ضد المجهولين المقنَّعين، بينما يفرح ويبتسم الفاعلون المشاركون المُبرَّؤون!

نحن عرفنا عصابة الأمم المتحدة، وجماعات حقوق الإنسان والحيوان، والمدافعين عن سلامة الأصنام في أفغانستان، يتسابقون في ذرف دموع التماسيح على ضحايا الإجرام الإرهابي في دول الغرب - دون الشرق - بمجرد أن يُبث الخبرُ من قبل دوائر الاستخبارات وإذاعاتها العميلة التي كانت دائماً وأبداً على عِلم مسبق بجميع العمليات، ما حصل منها وما أرجئ، وقبل أن تحصل.

لا عليكم من ذؤبان العرب

ولا أريد أن أحذِّر شعبَنا في سورية من ذؤبان العرب، فقد عرفوا تلك الأدوات حقَّ المعرفة، وعلمتُ أيضاً علم اليقين أن تلك المخلوقات لا تتعدى كونَها في نظر أسيادها "مسامير صغيرة ضئيلة قليلة النفع" تُضرب في نعلِ الاستعمار المهترئ في محاولة تصليحه عند "اسكافي العصر" من أمثال مفتي الناتو المشهور كما صاروا يسمّونه في هذه الأيام؛ فسرعان ما تسقط مسمارٌ بعد آخر، فيحار صاحب النَّعل، ولم يعد يدري كيف يلبسه بعد فداحة الفتق وكِبر الخرق بعد حلول الأجل وانقضاء عمر الحذاء.

لأنه بعد طول المشي يذوب رأسُ المسمار، ولا يبقى منه إلا الذَّنَب الذي لا يقوى على البقاء أو الالتصاق.

فأولئك ليس لهم منِّي خطاب ولا لمرتزقتهم داخل سورية من الذين ما زالوا يتربَّصون ويقاطعون بعد اختراعهم ديمقراطية إقصائية انعزالية رافضة!

فلا هي ديمقراطية ولا هي دكتاتورية؛ بل شيء آخر لا أريد الإفصاح عن تعريفه.

رأيناهم وسمعناهم على مدى أكثر من عام يرفضون الحوار وخوض الانتخابات، آملين أن يصلِّح صاحبُ الحذاء حذاءه بمسامير جديدة قويَّة تقاوم وتثبت أمام الصخور والعثرات والمطبَّات.

فهيهات... هيهات!

أنَّى لهم ذلك بعد أن فقد صاحبُ الحذاء ثقته بالمسامير والإسكافي الهَرم الذي انفضح أمرُه أمام العقلاء والبسطاء وحتى الدهماء!

أما آن لهؤلاء أن يستعيدوا الرشد؟

لقد قلتُ فيهم كلمات قرأها السادةُ القراء كانت إحداها: "نادي المطلَّقين الساخطين سيحلُّ نفسَه بعد حين"؛ فهل ما زالوا يعيشون في الخيال والأحلام حتى بعد أن انكشف الغطاء؟

أخبِرهم وأنصَحهم بأن ذاك النعل قد بليَ واهترأ وانخرق، ولم يعد يصلح مهما حاول اسكافيو العرب الفاشلين إعادته إلى نشأته الأولى في قدم المستعمر الحريص على دمقرطِة الشعوب بالقوة بعدما عرفت تاريخه وأخلاقه.

دامت سورية أبية حرَّة منتصرة ودامت قيادتها الحكيمة.

وسورية بألف خير.

الافتتاحية

حسين جمعة

سورية من المؤامرة إلى الاستهداف

ما زال الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة يمارسان منهج الاحتواء والهيمنة على العالم، ويعملان جاهدين على رسم مخططات ذات مستويات عدة سياسياً وعسكرياً وتقنياً، ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً... ولم يعد أحد يجهل محاولتهما لإعادة تقسيم المنطقة وفق شرعة دولية جديدة توافق المصالح الغربية، ومصالح بعض الأنظمة العربية بوصفها تمارس تنفيذ ما وجدت من أجله، علماً أن الكيان الصهيوني ينفذ سياسة عدوانية استيطانية استعمارية في المنطقة لا يستطيع غيره أن يمارسها في صميم السياسة الشاملة للدول العظمى...

فالدوائر الغربية والصهيونية لم تعد تقتنع باتفاقيات التقسيم القديمة، ومشاريع الهيمنة التقليدية فابتكرت أساليب جديدة تواكب تطور الذهنية المعرفية المستجدة؛ بمثل ما تستجيب لمشاعرها النفسية العدوانية والاستعلائية المتنامية... وليست سياسة الفوضى الخلاقة، أو مفاهيم العولمة... بعيدة عنا. وكلها أتت في صميم مشروع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير، أو مشاريع الغزو العسكري المباشر من أجل إعادة رسم خارطة المنطقة.

إن تاريخ تلك الدوائر حافل بالمشاريع الإجرامية التي انتهكت كرامة الإنسان؛ وداست قيم التاريخ البشري من أجل مصالحها... ثم إن الإدارة الأمريكية وجدت ضالتها في الأحداث الجارية في الوطن العربي ورأت أن الفرصة مواتية لتحقيق أهدافها ومصالحها؛ سواء عن طريق ما سمي بمنظمات المجتمع المدني أم المعارضات في الداخل والخارج... ومن الجدير بالذكر أن الخلافات الدولية والتوترات والاضطرابات الاجتماعية والثقافية والسياسية للمجتمعات في أوطانها ساعدت هذه الإدارة وحلفاءها غرباً وشرقاً على تنفيذ سياستها التي قامت على وراثة الهيمنة على مقدرات الشعوب ومواردها الطبيعية والبشرية، والسيطرة على القرار السيادي للدول... وحينما رأت أن مخططات التقسيم والفتنة، حققت نتائجها تاريخياً فإنها تبنت المنهج كاملاً وطفقت تبتكر أشكالاً جديدة من التآمر والاستهداف كما حصل في غير ما مكان من دول العالم من فلسطين والصومال وأفغانستان إلى العراق ولبنان ... وراح أعداء الأمة يمارسون تدمير مكوناتها ومشروعها القومي بحجة مكافحة الإرهاب، على حين أنهم هم من يمارس الإرهاب والعنف والقتل... ويدعون إلى إشاعة الحرية على حين أنهم من يكبل حرية الآخر لصالح ما يرغبون فيه... وكذا هي مفاهيم الديمقراطية يريدونها بالمقدار الذي يستجيب لأهدافهم. ولا شيء أدل على ذلك من نفاق الإدارة الأمريكية حين أعلنت مراراً وتكراراً أنها مع حرية الشعوب وإشاعة الديمقراطية فيها؛ ولكنها دمرتها واحتلتها؛ وتركتها على مقاسها كما رأيناه في العراق (2003م) والسودان (2011م) وكما تتوخاه اليوم في سورية. فهي تقول شيئاً وتفعل شيئاً آخر؛ فتعلن للملأ أنها لا تريد تسليح المعارضة السورية بينما ترسل الإشارات الكثيرة لتقديم كل أشكال الدعم العسكري لها من حلفائها...

وكل من يدقق في الأزمة السورية التي اندلعت شرارتها الأولى في (2011/3/15م) يدرك إلى أي حدّ تغيَّر موقف عدد من الدول عربياً وإقليمياً ودولياً تجاه سورية، استجابة للرغبة الأمريكية في تغيير النظام؛ ثم إسقاطه ولاسيما حين تذرعت بذرائع شتى لانتقالها من ضفة الممالأة إلى ضفة النفاق ثم ضفة العداء الصريح. ولسنا ننكر أن هناك مطالب مشروعة لشعبنا العربي في تحقيق الحياة الكريمة الفُضلى على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعلمي...

ثم إننا ننكر أن يَعْبُر أي إصلاح عن طريق إيجاد الفتنة الداخلية؛ وإشعال الحروب بين طوائف النسيج الوطني... ولمّا اتخذ موقف الإدارة الأمريكية شكلاً براغماتياً مراوغاً من الأزمة السورية في أحايين عدة كانت مواقف بعض الدول كفرنسا (سواء في عهد ساركوزي أم هولاند القادم من الاشتراكية الفرنسية) وألمانيا وبريطانيا وقطر والسعودية وتركيا واضحة لا لبس فيها...

ثم إن العالم ببواطن الأمور يعلم علم اليقين أن سورية أصبحت في عين المؤامرة؛ ثم بؤرة الاستهداف بعد أن أدَّى ما يسمى الربيع العربي دوره تونس ومصر واليمن وليبيا...

فالسياسة الدولية التي تنفذها الإدارة الأمريكية وحلفاؤها في سورية تستند إلى لعبة دموية تخالف كل القوانين التاريخية؛ ولا تمت إلى الأخلاق والمبادئ الإنسانية بصلة؛ لأنها أَحلَّت سفك الدم السوري حين أشعلت بذور الفتنة الطائفية في نفوس الضعفاء؛ ما شجعهم على النيل من إخوتهم في الوطن؛ وعاثوا فيه تدميراً وتخريباً... وإذا استمر الحال على ما هو عليه فلا بد أن يسقط البناء على رؤوس أصحابه جميعاً؛ ليفرح الأعداء بما آل إليه، وعلى رأسهم الكيان الصهيوني.

ومن ثمة فنحن نتوجه إلى السوريين كافة بوصفهم ـ كانوا على الدوام ـ رُسل حضارة، ورجالاً للبناء والتطوير؛ ودعاة لحل أي خلاف بوساطة الحوار من أجل بناء المستقبل المنشود سائلين إياهم: ما الذي يدعونا إليه الواجب والمروءة تجاه وطننا الغالي؟! ثم ما الذي ينبغي على ذوي الحكمة والانتماء الوطني الصادق أن يقوموا به نحو ما يقع بين ظهرانيهم؟!.

ومن ثم فإن الانتماء الوطني يفرض علينا جميعاً أن نبني حياتنا متوافقة مع روح الإخاء والتسامح والأمل؛ ومهتدية بحق الرحمة والعدل الاجتماعي ومخلصة للقيم الخيرة والأخلاق النبيلة... فلا يجوز أن يقال: إن السوريين خرّبوا وطنهم بأيديهم؛ وقتلوا أبناءهم بأسلحتهم... وقدّموا أنفسهم للعالم بصورة مزرية ومحزنة...

دنياه الجميلة

هذا الملفّ نافذة نطلّ من خلالها على عالم الأطفال الغنيّ بكل ما هو قيّم ومتحف.. نقرأ مواضيع تتعلّق بحيثيّات بالغة الأهمية تدور في فلك الطفولة.. حيثيات أردنا منها تسليط الضوء تربويّاً ونفسيّاً، أخذت من الطفل، وعادت إليه، لأنّه يستحقّ منا ما هو مهمّ ومفيد وممتع، ليغدو القامة الصلبة التي نحبّ لها أن تكون. إنّنا نحاول، وما زلنا نحاول؛ فأدب الأطفال ليس الأدب السهل، كما يعتقد بعضنا، إنّه من الصعوبة بحيث نتهيّب، ونقف مربكين أمام إشكاليّاته التي لا تعدّ، ويتعذّر علينا الإحاطة بها مهما أوتينا من معرفة تتعلّق بفنّ لم يظهر منذ زمن بعيد، لكنّه راح يتقدّم خطوة خطوة، عساه يستطيع اللحاق بركب الفنون الأخرى التي تخصّ الكبار.. قصّة، رواية، مسرحيّة، شعر.. هو حلم.. هي أمنية، والأمنية قد تتحقق ما دام هناك من يجاهد من أجل ترجمتها فوق أرض الواقع.

تقام الندوات والمؤتمرات، وتعقد اللقاءات والاجتماعات ويسعى المهتمّون إلى بلورة الأفكار والنظريات بتطبيق حيّ يعالج مشاكل الطفولة وأبعادها المشمولة بكل ما هو نظيف ونقي، ليفتح الطريق أمام جيل نريد له الرفعة والكرامة والصحّة النفسية التي تخوّله صياغة المستقبل بشكل معافى، خالٍ من الأمراض المستعصية والغريبة.

الكتابة للطفل لا تعني فقط قاموساً لغويّاً نعتمد عليه، ولا اصطلاحات ارتأى المعنيّون إدراجها، ولا مفردات أو تفاصيل تخصّ المناهج وتقول لنا: عليكم اعتمادي وإلا....؟

إن المسألة تبتعد قليلاً عما ذكرت.. فإلى جانب ما ورد، هناك الخصوصيّة التي يتمتّع بها كاتب الأطفال.. صفاته، داخله، تربيته، محبته للأطفال... وعند الأخيرة أقف.

من لا يحبّ الطفل لا يستطيع أن يكتب له وعنه، ومن لا يلاصق الطفل لا يستطيع أن يكتب له وعنه، ومن لا يملك في قلبه قلب طفل لا يستطيع أن يكتب له وعنه.. هذه الأمور جميعاً دعتنا في جريدة الأسبوع الأدبي إلى أن نفكّر بمشروعنا هذا، ونخصّص ملفاً لأدب الأطفال، يضم آراء متعدّدة ومتشعّبة وربما مفترقة، لكنها تتفق في النهاية، ولا تختلف بالنسبة إلى الرسالة المقدّسة التي أردنا إيلاءها اهتمامنا ومحبتنا.

«الأبعاد التربوية - أوجاع الأطفال - التآمر على اللغة - الكتابة للأطفال - المناهج التعليمة - الأساطير - الحكاية - القصّة - الشعر - المسرح - القصة العلمية - القراءة - الرمز... إلخ...

إنها بعض المفاهيم الواردة ضمن هذا الملف، ارتآها أدباء آمنوا برسالة الطفل إيماناً جعلهم يسعون على الدوام إلى متابعة جميع ما يتعلّق بدنياه الجميلة.

حنان درويش

وظائف أدب الأطفال

عيسى الشمّاس

لا أحد ينكر اليوم الاعتبارات الوظيفيّة التربوية، التي تشكّل عناصر أساسيّة لإنتاج أدب جيّد يمكن أن يسمّى بحقّ أدباً للأطفال. ومهما تعدّدت الآراء حول ما يمكن أن يقدّم إلى الأطفال عبر أدبهم الخاص من غذاء ثقافي، فإنّ الاتفاق العام هو أنّ يكون هذا الغذاء ملائماً لمدارك الأطفال العقلية ولاستعداداتهم النفسيّة، في مستوى المرحلة العمرية التي يعيشونها.

ولذلك أصبح الاهتمام بأدب الأطفال محلّ عناية كبيرة في العصر الحاضر، بعد أن تغيّرت النظرة إلى الطفولة وخصائصها، واعتبارها المرحلة التي توضع فيها أسس ملامح الشخصيّة المستقبليّة. وانطلاقاً من مبدأ التربية الشاملة، أصبح أدب الأطفال من الروافد الثقافية / التربوية التي تؤدّي وظائف متعدّدة في إطار التكوين الشخصي للطفل.

ويمكن تحديد هذه الوظائف بالجوانب الآتية:

أولاً-الوظيفة النفسيّة:

الطفل بطبيعته مرهف الإحساس، ينجذب إلى الأصوات العذبة والألحان المتناغمة ذات الإيقاعات المنسجمة، كما يحبّ المواقف والمشاهد التي تجلب له المتعة والفرح، وتتوافق مع عواطفه وانفعالاته. وأدب الأطفال الذي يراعي هذه الطبيعة الحسّاسة للطفل، ويزخر بالصور والحركية الفنيّة، يحقّق للطفل الجوانب النفسيّة التالية:

1- ضبط انفعالات الطفل ومشاعره، وتهذيبها، بما يحقّق التكامل بين عواطف الطفل وسلوكه، وتكيّفه الذاتي والاجتماعي. وذلك من خلال تقديم الشخصيات الناجحة في حياتها، المتوازنة والملتزمة بالفضائل الحميدة.

2- إبعاد الطفل عن الأجواء المأساوية والمحزنة، والمشاهد المخيفة والمواقف المرعبة، وإضفاء أجواء الحيوية والمرح على الشخصيات والمواقف، وتوفير عوامل التشريق والاستمتاع.

3- تلبية حاجات الطفل وميله إلى البحث والاكتشاف والمغامرة المعقولة؛ حيث يقدّم له أدب الأطفال المعلومات التي يحتاج إليها، والإجابات التي يبحث عنها للتساؤلات التي تقلقه، فتوّفر له الأمن والارتياح، وتنمّي لديه الموهبة والإبداع.

ثانياً- الوظيفة التعليميّة:

يتميّز الطفل، ولا سيّما في مراحله الأولى، بالخيال النشط وغير المنضبط، فيبني لنفسه عالماً خاصاً يتداخل فيه الواقع بالخيال، والحقيقة بالوهم ؛ فيتحدّث عن نفسه ويقلّد سلوك الشخصيات التي تعجبه، كالمعلّم والأب، والفارس الشجاع.. وغيرها ممّا يثير اهتمامه ويسهم في بناء قيمه. وهنا يستطيع أدب الأطفال، من خلال العرض المشوّق والخيال المنسجم المعقلن، أن يحقّق وظيفته التربوية من خلال الأغراض الآتية:

1- تلبية حاجات الطفل في عالم متنوّع، يوسّع أفقه المعرفي وينمّي قدراته اللغوية؛ حيث يعطى الطفل المعلومات الصحيحة، والتفسيرات العلميّة المنطقية، ويبعده عن التفسيرات الخرافية.

2- مسايرة طبيعة الطفل وميله إلى التقمّص والتقليد، وتمثيل السلوك الذي يلبّي حاجة لديه، فيحقّق ذاته وينتقل تدريجيّاً إلى الذات الشخصيّة إلى الذات الاجتماعية، في بيئته العامة.

3- اعتماد المواقف الإيجابية والتصرّف العفوي للشخصيات، والابتعاد عن الوعظ والتلقين المباشر، بحيث يستطيع الطفل استخلاص القيمة المقصودة والسلوك المرغوب بقناعة وبفاعلية ذاتية.

4- تفتيح قدرات الطفل وتنمية استعداداته الذاتية، بما يسهم في نموّه من خلال تقديم الموضوعات التي تتّسم بالبساطة وقلّة التشعّب والتشابك، فلا تتعارض مع الحياة الواقعية ومعطياتها.

ثالثاً- الوظيفة الاجتماعيّة:

ترتبط هذه الوظيفة بالوظيفة التربوية بشكل مباشر، بالنظر إلى أنّ التربية هي عملية اجتماعية من حيث المنطلق والهدف. وبما أنّ أدب الأطفال يستطيع أن ينقل الطفل / القارىء عبر الزمان والمكان، فإنّ الأماكن المختلفة، بمشاهدها وشخصياتها، تحرّض حاجة الطفل إلى الاستطلاع ومعرفة كلّ جديد، فيصبح أكثر فهماً للبيئة الاجتماعيّة المحيطة به وللعلاقات الخاصة التي تسود فيها.

وضمن هذه الوظيفة الاجتماعيّة، فيمكن لأدب الأطفال أن يحقّق الأمور الآتية:

1-تنمية الحسّ الاجتماعي عند الطفل، وإبعاده عن الأنانية والفردية والانطوائية، من خلال تقديم نماذج من الشخصيات والمواقف التي تعبّر عن التآلف والتعاون وترسيخ العلاقات السليمة، من أجل المصلحة الجماعيّة.

2- تعويد الطفل على النظام والانضباط، والتعلّق بالسلوك المرغوب من قبل الجماعة، وتنظيم مجال الحرية الشخصيّة في إطار علاقتها بالحرية العامة في المجتمع الكبير.

3- إكساب الطفل المعارف الضرورية عن العلاقات الاجتماعية السائدة في بيئته والبيئات الأخرى، ولا سيّما الأمور التي تتعلّق بمعايير السلوك السوي في الأسرة والمجتمع والطبيعة، بما يسهم في تحقيق التكيّف الإيجابي للطفل، حالياً ومستقبلاً.

4- تجسيد النظام الاجتماعي العام، بكلّ ما فيه من بنىً (ثقافية وأخلاقية واقتصادية)، من خلال الموضوعات التي تعالجها النصوص الأدبية (القصّة، الشعر، المسرحيّة)، فيتعزّز لدى الطفل الشعور بالانتماء إلى الجماعة، وتقدير الآخرين، والتفاؤل الدائم بجمال الحياة.

رابعاً- الوظيفة الوطنيّة:

لا تخرج الوظيفة الوطنية عن الوظيفة الاجتماعية / التربوية، ضمن الأهداف العامة لأدب الأطفال الناجح، بوصفه رافداً ثقافيّاً/ تربويّاً يستطيع أن يربط بين الماضي والحاضر، ويعمّق الانتماء الوطني من خلال مراعاة الأمور الآتية:

1-التوجيه الوطني السليم، من خلال النصوص الأدبية التي تتحدّث عن الرموز الوطنيّة (قادة، أبطال، علماء، مواقف خالدة..)، وترسّخ أصالة الشعب، وتعمّق الجذور التاريخيّة / التراثية التي تسهم في تربية النموذج الجديد للإنسان / المواطن الحضاري.

2- طرح الموضوعات التي تعالج مواقف وأحداث تغرس في نفوس الأطفال قيم (محبّة الأرض والوطن، التضحية والفداء، إعلاء مصلحة الوطن، وصون حريته وكرامته..)، وتوظيف المعارف التاريخية والعلمية والأدبية، لتأكيد دور الأمّة في صنع الحضارة الإنسانية.

3- الكتابة بلغة عربية فصيحة (مبسّطة)، من خلال تقديم النصوص الأدبية بلغة سهلة التراكيب، عذبة الإيقاع، واضحة المعاني، بحيث يستطيع الطفل التعامل معها واستيعاب مضمونها بيسر وسهولة، لأن اللغة في أدب الأطفال هي الأداة الأساسيّة في الإيضاحات الفنيّة للأعمال المكتوبة.

أخيراً، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الوظائف لأدب الأطفال، وإن قسّمت للإيضاح، فهي متداخلة ومتكاملة فيما بينها، بحيث يمكن لأية وظيفة منها أن تحقّق جوانب من الوظائف الأخرى، في إطار الوظيفة التثقيفيّة / التربوية الشاملة والمتكاملة لأدب الأطفال، بوصفه المحور الأساسي لثقافة الأطفال، الذي يغني تفكيرهم ويعمّق إدراكهم، ويقدّم لهم صوراً واضحة عن الكون والحياة..!

في ثقافة الأطفال

التعريف بأدب الأطفال: أدب يبدعه الكبار للصغار من ضرورات الثقافة الشاملة

نزار نجار

في الآونة الأخيرة، أشار الباحثون والمهتمّون بأدب الأطفال- إشارات مكرورة- إلى تعريف أدب الأطفال على أنه مهمّة معقّدة تتحدّى في الواقع حدود الإيجاز وحدود الدقّة والصراحة أو التجرّد، وقد تراوحت تعريفات المعنيين بهذا الأدب من عدّ أدب الأطفال على أنه: أي شيء يقرؤه الأطفال ويتمتّعون به، إلى عدّه المقطوعات الأدبية التي تتمتع بدرجة عالية من النوعية، والتي ينبغي أن تفي بالمعايير الفنية والجودة!

ويعدّ آخرون أن أدب الأطفال هو وسيلة للانبعاث التي تثير المواقف الشخصية لدى الأطفال وتلك التي تغذي معلوماتهم من خلال النصوص الإبداعية القصصية وغير القصصية!

بالإضافة إلى أن تكون هذه النصوص الموجّهة إليهم قادرة على تنمية الإحساس بالجمال والرهافة، قادرة على تقويم القيم، الإبداع والخيال ومحبّة الإنسانية، مع مراعاة عنصر الترفيه، ومراعاة الهروب من أرض الواقع وأن تتوافر في هذه النصوص المتعة الشخصية، والخبرات الجلية توافراً غير مباشر!!

ويتضح للمتأمّل فيما قُدّم هنا: صعوبة وضع تعريف لأدب الأطفال نظراً لملابسات تحديده أو تأطيره!! كما أنه ليس هناك اتّفاق واضح على تعريف هذا الأدب، على الرغم من أن هذه التعريفات-في الأعمّ الأغلب- هي تعريفات تتقاطع في كثير من المحاور والمرتكزات؛ بل تتلاقى في النهاية ضمن سياق واحد!

تعريف أدب الأطفال

فيما يلي أورد-أهم- التعريفات في أدب الأطفال مع الإشارة إلى مصادرها في نهاية الحلقة الثانية من البحث:

- أدب الأطفال هو كل خبرة لغوية لها شكل فنّي، ممتعة وسارة يمرّ بها الطفل ويتفاعل معها، فتساعد على إرهاف حسّه الفني والسمو بذوقه الأدبي، ونموّه الكامل، فتسهم في بناء شخصيته وتحديد هويته وتعليمه فنّ الحياة(1).

- أدب الأطفال هو نوع حديث من الأدب يكتبه الكبار ويوجّه إلى الأطفال (2)، مع الإشارة إلى أن هذا الأدب مختلف عن أدب الكبار من حيث طبيعته الفريدة من نوعها، ومن حيث أهدافه وموارده التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بخبرات الطفل ومهارات فهمه.

- أدب الأطفال هو أدب مباشر، أدب غير معقّد، يحتوي على روح الدعابة، وهو أدب خالٍ من العنف أو الموضوعات الجنسية(3).

- أدب الأطفال هو مجموعة النصوص الأدبية المقدّمة للأطفال، التي تراعي خصائصهم وحاجاتهم ومستويات نموّهم؛ أي هو في معناه العام يشمل كلّ ما يقدّم للأطفال في طفولتهم من مواد تجسّد المعاني والأفكار والمشاعر، وله أثر ثقافي هام؛ حيث إنّه يقود إلى إكساب الأطفال القيم والاتجاهات واللغة وعناصر الثقافة الأخرى بالإضافة إلى دوره المعرفي من خلال قدرته على تنمية عمليات الطفل المعرفية المتمثّلة في التفكير والتخيّل والتذكّر، كما أنه يسهم في انتقال جزء من ثقافة المجتمع إلى الأطفال بصورة فنية لذا فهو أداة في بناء ثقافة الطفل(4).

- أدب الأطفال هو أدب يبدعه الكبار للصغار، يلبّي حاجة الأطفال ويساير ميولهم وينهض بأحلامهم ويجعلهم يعيشون طفولتهم ويتمتّعون بها، ويحقق آمالهم، ويكتشفون من خلاله خصائص شخصياتهم، وهو ضرورة من ضرورات الثقافة الشاملة للمجتمع(5).

- أدب الأطفال يمتدّ من الولادة إلى سن المراهقة، وهو أدب يغطي شتى الموضوعات ذات الصلة بأطفال اليوم في مجمل الكتابات القصصية وغير القصصية(6)

- أدب الأطفال هو أي عمل أدبي مكتوب لجمهور مستهدف، من سن الصغر ولغاية (12) سنة (!!) يخاطب خبرات الطفل واحتياجاته الخاصة، ويعزز القيم والثقافة الأخلاقية محلياً وعالمياً، وهو أيضاً مجال ترفيهي وفكاهي ووسيلة لإثارة الفضول والإبداع والخيال لدى الأطفال(7).

-أدب الأطفال أداة لمساعدة الطفل في نموه النفسي والإدراكي، ويرضي فضوله المعرفي مع اكتساب الموضوعية (8).

-أدب الأطفال وسيلة ثقافية تربوية فعّالة، ينجذب إليها الأطفال برغبة، ويتفاعلون معها بحرية ومتعة.

-أدب الأطفال هو أقوى سبيل يعرّف الصغار الحياة بأبعادها الماضية والحاضرة وحتى المستقبلية، ومن أدب الأطفال ينمو الصغار وينتقلون من حالة التمركز حول الذات إلى حالة الكائن الاجتماعي الذي يتمركز حول الآخرين، وبذلك يسهم أدب الأطفال في تنشئة طفل مثابر مخلص واجتماعي متعاون (9)

- أدب الأطفال يقود إلى إكساب الأطفال القيم والاتجاهات واللغة وعناصر الثقافة الأخرى، وله دور معرفي من خلال قدرته على تنمية عمليات الطفل المعرفية، المتمثّلة بالتفكير والتخيّل والتذكّر.

وبوجه عام إنّ أدب الأطفال- بوصفه تجسيداً لثقافة الأطفال- يسهم في انتقال جزء من الثقافة إلى الأطفال بصورة فنية، ويسهم في إقناع الأطفال بالآمال الجديدة، لذا فهو أداة في بناء ثقافة الأطفال (10).

أدب الأطفال ضرورة تستدعيها إرادة بناء الإنسان بالدرجة الأولى، ناهيك عن الوظائف الكبرى التي يضطلع بها هذا الأدب في عمليات التنمية الثقافية والاجتماعية والسياسية(11).

-أدب الأطفال جنس أدبي موجّه إلى الطفل، ملائم لعالمه، لغته مستمدّة من معجم الطفل، يطرح قيمة ضمنية، ويعبّر عن مغزى ذي أساس تربوي مستمدّ من علم نفس الطفل (12).

من أجل تعريف جديد لأدب الأطفال

ما تقدّم من تعريفات لا تبدو متباينة، ولا مختلفة؛ بل إنّها تتقاطع في نقاط كثيرة، وتتواصل تحت وطأة (التابو) التربوي التقليدي؛ بل تجعل من كتاب أدب الأطفال أهل الحكمة الذين لايخطئون، وهم- على الأغلب الأعمّ- يتشابهون مع الآباء والأمهات في البيوت، ويتشابهون مع المعلمين والمعلمات في المدارس، وقد لوحظ أنّ هذه التعريفات المتشابهة خرجت من معطف واحد، ومن مرجع واحد، ومن تصوّر مسبق واحد، فكأنما-بعض هذه التعريفات- يحكمها ذلك الفهم الخاطئ القائم على التلقين (في الأدب)- التلقين بشكليه المباشر وغير المباشر، كأنّما هي بعيدة عن فكرة الفنّ إلى شيء لا يمكن توصيفه بدقّة، كأنّما تتغافل عن المكونات الفنية لأدب الأطفال؛ وتنحرف بالأدب إلى كتابة تعليمية، كتابة تقليدية، تتجاهل أن عالم الطفل هو عالم ذكي، يعي الأشياء بفطرته ويحتاج- فقط- إلى إثارة خياله وعقله لتحفيزهما للإبداع والابتكار من خلال معايشته لنصوص معاصرة، وأدب حديث معاصر بعيداً عن الأوامر والنواهي والوصايا والإرشادات!.

ومناخ الحرية والرخاء الذي تحظى به الديمقراطيات الغربية؛ يقدّم نتائج أفضل في استيعاب الأطفال لخبرات الحياة في مجال الأدب والفنّ والتذوق البصري..

وأدب الطفل الحديث طفر طفرته الهائلة باحترامه البالغ لعقل طفل اليوم؛ أدب الطفل الحديث يقدّم الثراء الفكري من خلال أحدث المدارس والنظريات والاتجاهات الحديثة في الكتابة، صار كل طفل يمتلك ما يجعل العالم كلّه قرية صغيرة أمام عينيه!.

لم يعد يحتاج إلى بساط الريح.. لم يعد يحتاج إلى الطبق الطائر ولا إلى مصباح علاء الدين، صار يعبث بجهاز (الريموت) الصغير لتتدفّق عليه آلاف القنوات والمواقع (من التلفزيون والانترنيت)، تحمل إليه أصناف الثقافات والمعارف، جاءت بين يديه ثقافة الصورة، تقدّم له الشرق والغرب، وتصله بين عالم الرفاهية والثراء، وعالم الأوبئة والمجاعات، وصار الكتّاب أمام طفل مختلف كبر قبل أوانه، فماذا سيقدّم له أدب الأطفال؟

سؤال نتركه للمستقبل!!!.

إشارات

1-قناوي، هدى محمد، أدب الطفل وحاجاته، منشورات مكتبة الفلاح – الكويت 2003

2-البرشوم، يوسف، مفهوم أدب الأطفال ، الكويت 2006

3-الشاروني ، يعقوب، تجربتي في الكتابة للأطفال، ملفّ أدب الطفل، الفيوم – مصر – 2009

4-الخولي، نادية، الطفل في كتب الأطفال المصرية، القاهرة، الملفّ، 2010

5- نجار، نزار، ثقافة الأطفال، منشورات دار الوزّاق ، بيروت 2003

6- لينش، براون وتوملينسون ، أدب الأطفال، بوسطن 2008

7-بوزين الدين وشموط، (أمل وريما)، الطفل في السباق اللبناني، الملف- الإسكندرية، 2010

8- الجيزاوي، خليل، ثقافة الطفل بين الوعظ والخيال ، الفيوم ، مصر – 2009

9- شهوان، نجلاء، أدب الأطفال، ط 1 عمان 1996

10- الهيتي ، هادي، ثقافة الأطفال ، عالم المعرفة ، الكويت 1988

11- أبو هيف، عبد الله، الموقف الأدبي، العدد (208 -209 -210) تشرين الأول 1988

12- الفيصل، سمر، الموقف الأدبي، العدد (208 -209 -210) تشرين الأول 1988

القراءة والطفل

نظمية أكراد

القراءة بوابة المعرفة الكبرى، ومدخل الإنسان إلى الفهم والاطلاع والعلم والإبداع، وإن الغاية الأساسية الفكرية للطفل هي حاجته الدائمة لمعرفة كل ما يدور حوله في هذا العالم الجديد المترامي الأطراف، الذي يعج بالألغاز الصعبة المحيرة والمخيفة، فالقصص السهلة البسيطة التي تكون صورة عن الواقع المحيط به تجعله يحس بالراحة والأمان، ويتسنى لعقله أن يفهمها ويتفاعل معها بمحبة وسهولة، ويتعرف إليها أكثر بطريقة ممتعة، والطفل يتعلم القراءة، ويمكن أن تبنى بينه وبين الكتاب صداقة، ويصبح متابعاً ومحباً للقراءة، ومن المهم ربط الطفل بالكتاب بأسلوب تربوي وتعليمي مفيد يشده إلى القراءة، ولا ينفره منها أو يجعله يشعر بأنها عبء من الأعباء، وأحد الواجبات المفروضة عليه التي لا يصدق متى يتخلص منها.

أما إذا كان فيما يقدم للطفل من كتب للقراءة جديد ومشوق، فإنه يقبل على ذلك وتتكون لديه ملكة وذائقة ورغبة. ولكي نحبب الطفل بالقراءة، لابد أن نأخذ بيده إلى ما يحب ويرغب بوسائل مقبولة، منها.

1ـ أن نقوم بتشجيعه ومساعدته على أن تكون لديه مكتبة صغيرة تضم الكتب المصورة الملونة علمية وأدبية، ليكون هناك توازن بين الكتب العلمية والأدبية، والقصص الجذابة، والمجلات المشوقة المنوعة التي تضم مواضيع متعددة علمية وأدبية وأحاج وتسالٍ ونكات ورياضة، مقدمة بأسلوب فني جذاب.. ونرافقه إلى المكتبة لشراء الكتب والمجلات التي ينتقيها بنفسه، ونترك له حرية الاختيار بتوجيه غير مباشر، وتقديم العون والرأي له من بعد، من دون فرض أو إكراه على شراء كتب معينة. وعندما تتأصل عنده عادة القراءة، ويحب أن يقرأ بنفسه، نساعده برفق على فهم ما استعصى عليه فهمه في أثناء القراءة، ونشجعه على إغناء قاموسه اللغوي، وعلى البحث عن الكلمات الصعبة المستعصية عليه لمعرفة معانيها، وعلى بذل الجهد للاستيعاب والتلخيص، لكي يزداد تعلقه بالكتاب وإقباله عليه بشكل طوعي وعفوي.. وأن نشترك له أو نشجعه على الاشتراك بمجلة طفلية تصل إليه باسمه إلى عنوان البيت أو صندوق البريد؛ الأمر الذي يجعله يحس بشخصيته وبكيانه المستقل، ويقبل على قراءة ما وصله عبر بريده برغبة. وأن يحفظ تلك المجلات والكتب في مكتبته الخاصة، أو بجانب من مكتبة البيت يخصص له، ويحترم هذه الكتب ويُحافظ عليها من التلف والتمزيق والاتساخ.

2ـ التدرج في تعليم القراءة للطفل؛ فنبدأ بالقصص المصورة، وتكون الصور من البيئة المحيطة به، ومما يتعود على رؤيته من حيوانات أليفة وطيور وأشجار ونباتات.. ثم تترافق الصورة بكلمة فجملة فسطر فأسطر عدة، إلى أن تصل إلى قصة قصيرة كاملة، تتوافق مع عمره وتساير نموه ونضجه العقلي والمعرفي. وتكون القراءة منذ البداية بمساعدة أحد الأبوين في جو من المحبة والحنان، وبطريقة جذابة تمتعه,, ونقصّ عليه قصصاً مشوقة ومسلية ومفرحة ومضحكة حتى ينام الطفل وعلى شفتيه بسمة، والانتباه للابتعاد عن القصص الحزينة والمرعبة وقصص الموت والأمراض والمشافي والقتل والدم والعنف. ومن المفيد أن نقرأ له حتى لو كان يعرف القراءة ويجيدها.. وربما كان هذا من أهم الأساليب لجعل الطفل يحب القراءة ويقبل عليها. وخاصة إذا كان ذلك قبل النوم.. حيث ينتظر الطفل وقت القراءة بشوق.

3ـ والقراءة للطفل ليست تقديم واجب وينتهي الأمر؛ بل قراءة بتعليم وصبر وشرح مرفقة بصور معبرة، مع توضيح المعاني وتمثيل بالأصوات والحركات؛ حيث يرتفع الصوت أو ينخفض، ويتم تقليدها الحيوانات والقطار أو السيارة أو الطائرة حسب الموقف والحدث وسياق القصة، مما يشعره بالمتعة المضاعفة.. وعلينا أن نشركه في هذه الحركات والأصوات وتقليدها الأصوات وتخيل الشخصيات، وخاصة إذا كانت القصص مضحكة، مما يجعله ينام في جو من الفرح والمرح، ويعيش الحكاية والمناخ الذي قدمت له فيه، ويستمتع بالقراءة ويقبل عليها؛ بل يطلبها ويلح عليها، لأنها تنقله إلى أحلى الأجواء المفعمة بالحب والحنان والألفة والخيال.

4ـ إعادة قراءة أي كتاب يختاره الطفل ويرغب في إعادة قراءته، ولو كان تافهاً بنظرنا، وقد قرأناه له مرات عدة ومللنا منه، ما دام يمتعه ويقبل عليه، ويصادف هوى في نفسه، حتى لو حفظه غيباً؛ ففي ذلك فائدة إلى جانب المتعة وتلبية رغبته، والاستفسار بعد ذلك عن السبب: لماذا تكرر اختياره لهذا الكتاب؟! وما الذي يجعله يرغب به ويجعله يستمتع بالاستماع إلى القصة مرة بعد أخرى وما الذي يلفته فيها، من دون تعليق أو لوم؟!. وعلينا أن ننتبه أن القراءة ليست آنية ومحددة، وإنما مستمرة ومتواصلة في أوقات الفراغ في الأسبوع مثلاً ثلاث مرات أو أكثر، إذا رغب الطفل .

5ـ القراءة الجماعية للقصة إن أمكن؛ فهي مفيدة ومحببة للطفل، وتشكل حافزاً على الفهم وإظهار التفوق.. كأن نقرأ لمجموعة من الأطفال من «أخوته وأقاربه وأقرانه وزملائه.. إلخ من أولاد أعمام وأخوال وعمات وخالات أو أبناء الجيران، ونطرح عليهم أسئلة حول القصة وحوادثها وشخصياتها، ونطلب محاولة إعادة سردها أو صياغتها، أو وضع عنوان جديد لها وإضافة فقرات جديدة من وحي أفكارهم، ثم نستمع إلى آرائهم.. ما الذي أعجبهم وما الذي لم يعجبهم، ولماذا..؟! وكيف يتمنون أن تكون؟! وبذلك نرسخ ملكة الفهم والاستيعاب والتحليل والتركيب والنقد والتذوق والحوار، ومعرفة الكلمات الجديدة وإكسابه مهارة لغوية وعقلية كالفهم والإدراك والتذكر والاستنتاج والبحث عن المفردات والاشتقاق والاجتهاد، والمقدرة على التعبير الحر المنطلق من أفكاره، وقدرته على التعبير عن نفسه وعن رغباته وحاجاته والاعتداد بقدرته وتحفيز خياله، وخاصة إذا لاقى التشجيع والاستحسان. وإذا كان النص المقروء مسرحية قصيرة مثلاً نشجعهم على أن يمثلوها بلغتهم وحسب فهمهم لها، مما يضفي على الجلسة جواً من الفرح والجدية والتنافس والحركة وتحرير نفسية الطفل من القيود؛ بحيث تكون حرة طليقة مما ينميها ويقويها، ويكون لديه الجرأة والشجاعة للتعبير عما يجول في خاطره؛ واكتساب مهارات، والتغير حسب حاجاته الروحية والنفسية.

6ـ قراءة الشعر الجميل المكتوب بأسلوب بسيط، وحفظه وإلقائه بصورة معبرة، ونطق سليم مع الحركات المعبرة والموحية من قبل الطفل، والحرص على سلامة الأداء والموسيقى؛ وغنائه إن أمكن، ومرافقاً بالعزف أو الإيقاع إذا تسنى ذلك.

7ـ وأكثر مما يجذب الطفل للكتاب هو إذا قدمت المدرسة له كتاباً للطفل باسمه مع إهداء عليه لتفوقه، وكان ممهوراً بتوقيع المعلمة أو المديرة؛ فهو يقبل على قراءته بشغف، ويحافظ عليه وينمي عنده حب الكتاب وتقدير قيمته، ويصبح مدعاة فخر له، ويرتبط به لارتباطه بمناسبة عزيزة ومفرحة. ويمكن للأسرة استغلال المناسبات كأعياد الميلاد والنجاح والتفوق لتقديم هدايا من الكتب للطفل عند نجاحه وتفوقه بدراسته، وفي عيد ميلاده، كالقصص العلمية والأدبية والدينية، وقصص الأنبياء والأبطال والعظماء، أو المسرحيات حسب عمر الطفل.

8 ـ ومما ينمي حب القراءة عند الأطفال إشراكهم في الألعاب القرائية، كقراءة اللوحات في الشوارع واللافتات والكلمات المضاءة ولوحات المحامين والأطباء ودعايات المسرحيات والأشرطة السينمائية، وعناوين الصحف والمجلات والكتب، وتعليمهم قراءة تاريخ إنتاج ومدة صلاحية الحلوى والحليب والمعلبات والأطعمة التي يتناولونها، ونشركهم ونعودهم على أن يختاروا بأنفسهم بعض ما يريدون، ونعرف الطفل كيف يحافظ على صحته، مما يفيده ويمتعه ويثير اهتمامه ويعلمه عادة مفيدة وهامة من خلال كل ذلك.

وإذا كان الطفل ينقل بحافلة المدرسة، وكان الطريق يتطلب وقتاً طويلاً، فيمكن أن نشجعه على اصطحاب كتاب مصور أو مجموعة قصص قصيرة مسلية كقصص البطولة، فيقرأ ويستفيد ويقطع الوقت بالمتعة والفائدة.

9ـ وفي خلال الإجازات المدرسية والسفر والرحلات نحاول أن لا يبتعد الطفل عن الكتاب؛ بل يكون رفيقه ومصاحباً له، ويمكن أن يشتري الجديد منه من المتاحف وحدائق الحيوان والمدن أو الدول الذي يسافر إليها. وشراء كتب مصورة وملونة عن البلدان والأماكن التي زارها يجعل لها قيمة خاصة عنده، لا سيما إذا صاحبتها بعض الشروحات، وعلينا أن نعلمه أن يصطحب معه دفتراً صغيراً يدون فيه مشاهداته وملاحظاته، وآلة التصوير ليدعم ما يرى ويحب بالصور واللقطات الفنية.. مما يرغبه في القراءة والكتابة، ويفتح أمامه أفقاً جديداً لتطوير معارفه وتنمية شخصيته ومداركه ويوفر له المتعة.

10 ـ أن نوفر له الكتب المناسبة لهواياته وميوله وحاجاته مما يجعله يقبل عليها بمتعة، واستغلال الإجازة بشكل أفضل؛ حيث لا ينقطع الطفل عن القراءة؛ بل نرغبه في ذلك ونشجعه لتكون علاقته حسنة بمكتبة المدرسة أو الحي؛ وبمكتبة البيت ومن ثم بالمكتبة العامة، بما تحويه من كتب متنوعة.

وبعد هذا نستطيع أن نطلب منه ونرغبه بكتابة مذكراته وخواطره ومشاهداته وانطباعاته، أو كتابة قصة قصيرة أو قصيدة أو مسرحية، ونقدم له العون والتشجيع والتوجيه والنصح بمشاركته وبعد أخذ رأيه بالتبديل، ويحاول هو إيجاد الكلمات المناسبة، وعند عجزه نساعده لتبقى الكلمات والمعاني راسخة في ذهنه، ويتعلم التذوق، ويصبح قادراً على الاعتماد على نفسه، وأكثر مرونة باستخدام المرادفات والجمل الأكثر رشاقة، والمفردات الأجمل والأكثر تعبيراً.

وعلينا ألا نغفل أهمية المدرسة والقائمين عليها في التشجيع على القراءة والتوجيه العام إلى جانب دور الأسرة في ذلك كله.

هجران القراءة .. الوجع الأكبر في ثقافة الأطفال

نجيب كيالي

القراءة ونمو الصغار:

البعد عن الكتاب داءٌ منتشر بين الصغار في بلداننا العربية، على نحو واسع، وربما هو مخيف مرعب. إنه يقطع شريانَ التغذية الثقافية لهؤلاء الصغار، ويرميهم في حالة يُتْمٍ خاصة، تحرمهم من الأفكار الجميلة والقيم الطيبة التي تأخذ بأيديهم، وتحنو عليهم كآبائهم وأمهاتهم، ولتوضيح هذه الفكرة لا بد من الحديث عن أهمية القراءة.

تسهم القراءة إسهاماً فعالاً في بناء العالم الداخلي للطفل. إنَّ الكلمات المقروءة تدخل من عينيه إلى أحاسيسه وعقله، فتترك أثراً يشبه أثر حبة المطر في التراب، وإذا عرفنا أن الأطفال هم صفحاتٌ بيضٌ لم يُكتَب عليها إلا القليل، أدركنا دورَ القراءة الكبير في ملء تلك الصفحات بالنافع والطيِّب والمثمر من المعارف والمعاني والمشاعر.

وتأكيداً لما سبق نجد علماء نفس الطفولة يربطون بين القراءة وبين نمو الصغار نمواً عقلياً وانفعالياً، وتربوياً، ويمكن في هذا المجال أن نذكر عدداً من النقاط:

1- تستطيع القراءة أن تقوِّي آليةَ الفهم عند الأطفال من خلال قيامهم بالربط بين الكلمات ومعانيها وتحليل تلك المعاني في أذهانهم.. أي أنَّ القراءة تتضمن سلسلة من العمليات، بعضها بصري، وبعضها عصبي، وبعضها ذهني، هذه العمليات تكون بطيئةً في البداية، ويكون الطفل بحاجة إلى مساعدة الأم والمعلم، لكنه بعد ذلك يستطيع الاعتمادَ على نفسه، وتصبح العمليات السابقة عنده أكثرَ سرعةً مع مرور الوقت وتطوُّر القراءة.

2- تنقل القراءةُ إلى الأطفال الثروةَ اللغوية وصورَ التعبير الجميلة، فتغريهم بالتعبير عن أفكارهم ومكنونات صدورهم، وقد لوحظ أن الطفل القارئ يتفوق في مهارة التعبير الشفوي والكتابي على الطفل الذي لا يقرأ، كما أن تعبيره يكون أكثرَ دقة وجمالاً وإيجازاً، لأنه يعرف المعنى الذي يريده بوضوح، فيختار أقصرَ الطرق إليه.

3- تحقق قدرةُ التعبير التي تطورت عند الطفل القارئ فاعليتين هامتين: الفاعلية الأولى في مجال التعليم، فيشارك في الحصص الدرسية بطريقة أفضل، والفاعلية الثانية في مجال التواصل الاجتماعي؛ إذ يغدو جريئاً في محادثة أقرانه، يروي لهم الفكاهات والأخبار، ويقدِّم ملاحظات متنوعة على ما يجري من حوله.

4- يكتسب الطفل بالقراءة أنواعاً كثيرة من المعارف، فيبدو- في سلوكه وكلامه- أكبرَ عمراً من الأطفال الذين لا يقرؤون، وتنمو لديه المحاكمة العقلية، فيبدأ بالتعامل تعاملاً موضوعياً مع الحياة، ومع المشكلات التي تعترضه.

5- للقراءة أثر بالغ في تكوين القيم والاتجاهات التي يرغب مجتمع ما في اكتساب أبنائه لها، لأنها ضرورية لحياته ونموه ومحافظته على وجوده، إنْ كان مهدداً من الخارج كما في حالة المجتمع العربي، كقيم العمل والمحبة والصداقة والتعاون والإيثار والمقاومة وسوى ذلك.

الأشكال المختلفة لقراءات الأطفال:

يتصف الأطفال بأنهم كائنات قليلة الصبر، سريعة الملل، تنفر من الرتابة، ولا تستطيع التركيز إلا مدةً قصيرة، وهذا كلُّه طبيعي جداً، فهم في طور النمو العقلي والانفعالي والفيزيولوجي، ولم تتكامل لديهم القدرات التي تمكِّنهم من أن يجلسوا كالكبار زمناً طويلاً في مكان واحد، ليتابعوا قراءة كتاب أو قصة طويلة.

هذا كلُّه يدعو المشرفين والمشرفات على ثقافة الأطفال إلى التنويع ما أمكن في أشكال قراءات الصغار، يُعينهم في ذلك ما أتاحه العصر الحاضر من وعي جيد لهذه القضية وإمكانات جديدة، ومن أشكال القراءة عند الأطفال:

أ- القراءة الذاتية المنفردة: وفيها يختار الطفل من مكتبة المدرسة أو غيرها كتاباً يحبه، ليقرأه في قاعة المكتبة نفسها أو في المنزل في ساعات فراغه، وغالباً ما يختار الأطفال في أيامنا كتبَ الفكاهة والحكايات والمجلات الجديدة لما فيها من الصور البراقة، إلا أننا يجب أن نعترف بأن هذا النوع من القراءة بات قليلاً عند أطفالنا العرب في الوقت الحاضر، لانصرافهم إلى وسائل اللهو الكثيرة التي انتشرت في عصرنا.

ب- القراءة في الصف تحت إشراف المعلم أو المعلمة لنص في كتاب المطالعة: وهي قراءة شائعة معروفة في المدارس؛ حيث يتضمن أكثر المناهج الخاصة باللغة العربية في الصفوف العليا من المرحلة الابتدائية كتاباً للمطالعة، ويحوي الكتابُ قصصاً ومقالات عن فرسان العرب أو كرمائهم أو عن أمجادهم وأخلاقهم، أو عن بعض قضاياهم المعاصرة كقضية فلسطين، هذا النوع من القراءة يُقدِّم للأطفال ذخيرة من المفردات والجمل، تنفعهم في كتابة موضوعات التعبير، وتشحنهم بالفضائل الطيِّبة والوعي بتراثهم وحياة أمتهم، غير أن الأطفال يرون في هذا الشكل من القراءة أمراً مفروضاً عليهم، وبعضهم يقرأ وهو يشعر بقسط كبير من الملل.

ج- القراءة في نادي الأطفال الأدبي: هذا شكل من أشكال القراءة الجديدة، يُقبل عليه الأطفال المنتسبون إلى الأندية الأدبية وإلى مدارس الأنشطة الطليعية، لأن القراءة تتم في جو مختلف عن جو المدرسة التقليدي، ومع القراءة يمارس الطفل قدراً من حريته، فهو الذي اختار النادي أو مدرسة الأنشطة، ولم يفرض أحد عليه ذلك، ومن الملاحظ أن معظم المشاركين في هذا النوع من القراءة هم من الأطفال الموهوبين في أحد مجالات التعبير كالقصة أو الشعر أو المقالة، فيأتي تفاعلهم ممتازاً ومثمراً.

د- القراءة في مهرجان قُرَّاء الأطفال: وهي من أشكال القراءة الجديدة أيضاً، وأشهر من يقوم بها في سورية منظمةُ الطلائع؛ حيث تستضيف المنظمة أديباً أو مجموعة أدباء يقرؤون للأطفال، وإلى جانبهم يشارك في القراءة عدد من الأطفال الموهوبين، فيقدِّمون في اللقاء نصوصاً من إنتاجهم، وقد يقتصر المشاركون على الأدباء الصغار وحدهم، ولهذا الأسلوب من القراءة مردود جيد، لأنه يتسم بالحيوية، ويتم في جو شبه احتفالي.

هـ - القراءة المُحفِّزَة: والتحفيز قد يأتي من الأبوين أو المعلمين أو المشرفين في النادي الأدبي، والمهم أنَّ التحفيز يثير دافعَ القراءة عند الأطفال، فيسارعون بدرجات متفاوتة إلى مطالعة الكتب، وللتحفيز طرق شتى تتراوح بين النصيحة السطحية بالقراءة، وبين الإثارة الفنية العميقة التي تدغدغ لدى الطفل مكامنَ الشوق ليقرأ ويعرف.

ز- القراءة التنافسية: وهي على نوعين: الأول: يتنافس فيه الأطفال الموهوبون تنافساً ذاتياً في القراءة (أي من دون توجيه الكبار) لرفع سوية مواهبهم؛ أو للتباهي بالسبق في الاطلاع على ما لم يطلع عليه أقرانهم، وهذا الشكل من القراءة لا يتم إلا ضمن دائرة ضيقة أو ضيقة جداً من أطفالنا.

الثاني: يتنافس فيه الأطفال تنافساً خارجياً من حيث عوامله المحرِّضة (أي أنه يتم بتوجيه من الكبار)، فنحن هنا أمام قراءة محفِّزَة غايتها التنافس، وهذا النوع من القراءة قد يجري التشجيع عليه قبل المناظرات الفكرية أو الأدبية بين الناشئة لإغرائهم بالفوز.

وسائل التنفيذ وأساليبه:

إنَّ التفاوت في أعمار الأطفال المتعلمين عامل مؤثر في نموهم العقلي وقدرتهم على التركيز، ومجمل تحصيلهم، فمن هم في الصف السادس الابتدائي أكثر نمواً وأعلى قدرة من أطفال الصف الثالث، مما يدعو العاملين في مجال التعليم والمشرفين والمشرفات في التربية الطلائعية أن يراعوا هذا التفاوت، وينتبهوا إليه جيداً في مسألة قراءات الأطفال، بل إن الاطلاع على الدراسات النفسية المتعلقة بعالم الطفل أمر ضروري لهؤلاء؛ إذ يزيدهم وعياً وخبرةً بالصغار وخصائص أعمارهم واحتياجاتهم الثقافية.

والمهم أن الانتباه إلى الخصائص العمرية يتعلق به إلى حد كبير نجاحُ قراءات الأطفال والنهوضُ بثقافتهم.

ويمكن الإشارة بصورة سريعة إلى بعض الجوانب الهامة:

أولاً- في مجال القراءة الذاتية المنفردة: ينبغي تزويد مكتبات المدارس بكتب طفولية تراعي الأعمار المختلفة، وأن يكون لأهل الخبرة من المعلمين والمشرفين الطليعيين دور في ذلك، ومن الضروري أن يكون أمين المكتبة أو أمينتها على قدر من الثقافة والتخصص بحيث يساعد الأطفالَ زوَّارَ المكتبة في اختيار الكتب الملائمة لأعمارهم.

ثانياً- في مجال القراءة الصفية لكتب المطالعة المدرجة في المناهج: على المعلمين والمعلمات أن ينتبهوا للمفردات التي يرتبك الصغار في فهمها، وأن يقللوا حجمَ المقطع المطلوب للقراءة، كلما كان عمر التلميذ صغيراً، مع الحرص ما أمكن على زيادة الجاذبية في حصة المطالعة وإبعادها عن الروتين والبرود، ومن المفيد في هذا الأمر أن يتلقى التلاميذ بعضَ حصصهم في المكتبة تارة، وفي حديقة المدرسة إنْ وُجدتْ تارةً أخرى.

ثالثاً- في مجال القراءة الخاصة بنوادي الأطفال الأدبية: يقسم المشرفون على هذه النوادي الأطفال إلى حلقات حسب أعمارهم، وكذلك يفعل المشرفون في مدارس الأنشطة، ثم يُقدَّم لكل حلقة من الصغار ما يناسبها من حيث المضمون والقيم والأسلوب، وعموماً فإن الأعمار الصغيرة تحتاج إلى نصوص بسيطة سواء كانت شعراً أم قصة أم مقالة، وتتمثل بساطتها في قلة عدد كلمات النص ووضوحها، وقرب الفكرة من العمر الذي توجَّه إليه، ومع البساطة المشار إليها لا بد من الجاذبية والتشويق في العرض، وبعد القراءة لا بد من إدارة نقاش حول النص المقروء للاستفادة مما جاء فيه، وإلقاء الضوء على بعض جمالياته التي تنمِّي الذوق الأدبي عند الجيل الناشئ، وعندما يقوم الأطفال بالقراءة للأطفال جدير بالمشرف أن يطَّلع مسبقاً على النصوص التي سيقرؤونها على زملائهم، ليعرف مدى مناسبتها لمن تُقدَّم إليهم.

رابعاً- في مجال القراءة الخاصة بمهرجانات قُرَّاء الأطفال: ينطبق عليها ما ورد في الفقرة السابقة تماماً.

خامساً- في مجال القراءة المحفِّزَة: لا ينجح التحفيز ما لم يأخذ القائمون به المستويات العمرية للأطفال الذين يقومون بتحفيزهم، فصغار الأطفال مثلاً يمكن تحفيزهم إلى قراءة كتب مبسَّطة في حياة الحيوان والطبيعة والأم والفكاهة والمرح، بينما يمكن تحفيز كبار الأطفال لقراءة كتب في الوعي البيئي والموضوعات الوطنية وبعض المشكلات الاجتماعية التي تمسُّهم.

سادساً: في مجال القراءة التنافسية: ولها نوعان كما سبقت الإشارة. في الأول منهما ليس للكبار دور فيه. أما ثانيهما فعلى من يقومون به من التربويين والعاملين في الطلائع أن يعوا حساسية هذا النوع من القراءة، وأن ينتقوا كتباً ملائمة لكل عمر من الأطفال هم يعرفون جيداً ما فيها، ويثقون بصلاحيتها للمناظرات التي تُقرأ من أجلها، وعندما يكون الكتاب فوق مستوى العمر أو غير صالح لتقديم معلومات للمناظرة التي يستعد الأطفال لخوضها؛ فإنه يسبب إحباطاً للطفل المتنافس مع سواه، كما أن على التربوي أن يدرك التنامي المستمر لوعي الأطفال نتيجة لتطور العصر، فما قرأه هو في طفولته قد لا يصلح معظمه لجيل اليوم سواء في ميدان القراءة التنافسية أو في غيرها.

عوائق واقتراحات:

تقف أمام تنمية القراءة في المجتمع العربي عوائقُ كثيرة من أهمها: ضعف الإيمان بالقراءة في أوساط الأطفال والقائمين على تربيتهم من الأهل والمعلمين، وحتى قسم كبير من العاملين في الأنشطة التثقيفية.

لقد سيطر على الأكثرية الساحقة من الكبار والصغار مناخ استهلاكي بالغ الرداءة، أنتجَ مزاجاً نفعياً بات يربط أصحابه بين كل ما يقومون به وبين النفعية المباشرة السريعة، ومن المعروف أن القراءة لا تحقق نفعيةً آنية.

ومن العوائق أيضاً ضعفُ الاهتمام بالمكتبات، وسويةُ الكتب الهابطة وغير الجذابة التي تُقدَّم للأطفال، ويبدو الشأن الثقافي- في الأغلب- وكأنه ديكور أو شعار بَرَّاق يجري من ورائه الضحك على الذقون.

كذلك تلعب الحالة الاقتصادية المتردية في أكثر البلدان العربية دوراً أساسياً في هذا الأمر، إضافة إلى طغيان وسائل التسلية الإلكترونية على اهتمامات الأطفال في هذه البلدان في نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، واستسلام الكبار أمام هذا الطغيان.

نحو هذا كله نستطيع تقديم بعض الاقتراحات:

* إعادة النظر في إعداد المعلمين والمعلمات سعياً لإيجاد المعلم المربي بدلاً من المعلم الموظف.

* مراجعة الآباء والأمهات لأوضاعهم الحياتية للعمل على توفير وقت أكثر للاهتمام بثقافة أطفالهم، ولا تنجح ثقافة الأبناء إذا لم يهتم الآباء بثقافتهم أيضاً.

* مما يمكن توجيهه للأسرة إبعاد التلفاز عن غرفة الصالون، بغية التحكم بمشاهدة الصغار له، أو تنظيم تلك المشاهدة بحيث تقتصر على الجيد من برامج الأطفال، وتأتي المشاهدة المسموح بها مكافأةً للطفل على قراءة قام بها، أو واجب أدَّاه جيداً.

* إجراء استبيانات يملؤوها الأطفال لمعرفة ما يرغبون في قراءته مضموناً، وما يطمحون إليه من حيث الشكل الفني في إخراج كتبهم.

* ومن المهم جداً فتح باب الحوار في هذه المسألة بين المعنيين بحثاً عن حلول ملائمة وأفكار جديدة بحسب المستجدات وظروف الأطفال في كل منطقة.

نموذج تطبيقي قابل للتنفيذ:

لاحظ أحد المعلمين في مدرسة من المدارس الأمريكية تراجعَ نسبة القراءة بين تلاميذه، فلجأ إلى الأسلوب التالي لتحسين قراءاتهم، وهو أسلوب تحفيزي يمكن تطبيقه لدينا:

أخذ المعلم يصطحب تلاميذه إلى المكتبة زيارتين في الأسبوع، وفي كل زيارة يقرؤون لمدة ساعتين كتاباً أو فصلاً من كتاب يختارونه بملء إرادتهم، بعد ذلك ينتقل الجميع إلى قاعة خاصة بالمناقشة، فيقدِّم كل تلميذ خلاصةً لما قرأه أو تعليقاً عليه أو فكرةً أثارت إعجابه أو نفوره، وما يقدِّمه التلميذ يكون موضوعاً للمناقشة من زملائه، وقد يسهم المعلم في المناقشة من موقع (المشاركة) لا من موقع (التوجيه).

حقق هذا الأسلوب البسيط نجاحاً كبيراً، وانتقلت التجربة من أمريكا، فشملت دولاً أخرى، ونستطيع نحن الاستفادة منه كما أشرت، كما نستطيع التفكير في أساليب أخرى مبتكرة لرفع درجات القراءة عند أطفالنا، وهي زاد هام لتثقيفهم وتطوُّرهم وتواصلهم مع العصر، وقدرتهم على تحقيق الآمال الكبيرة التي يطمح الوطن إليها.

الأبعاد التربوية في أدب الأطفال

صبحي سعيد قضيماتي

تضم جمعية أدب الأطفال في اتحاد الكتاب العرب نحو ثلاثين أديباً وشاعراً، أذكر منهم عزيز نصار ونظمية أكراد ومريم خير بك وحنان درويش ومحمد قرانيا وخليل بيطار ونجيب كيالي وسامي طه وآخرين، ليسو متفرغين جميعاً لأدب الأطفال؛ بل يكتب معظمهم للصغار والكبار. وقد حقق أدباء الأطفال نجاحات مهمة في عالم أدب الأطفال، على الرغم من أننا ندرك أن أمامنا طريقاً طويلة وشاقة للوصول إلى ظاهرة متطورة ومتميزة في أدب الأطفال وثقافتهم. فأدب الأطفال جزء مهمٌّ، لا يتجزأ من الحركة الإبداعية والثقافية الوطنية والعربية. وأنا شخصياً أرى أن حركتنا الإبداعية ما زالت تحتاج إلى جهود جبارة للارتقاء بها إلى مستوى يلبي طموحاتنا الثقافية والأدبية بصورة عامة. لا شك أننا نقرأ قصصاً وقصائد مهمة في أدبنا الطفلي الوطني، لا تقل في مستواها ـ مضموناً وشكلاً، عن الأدب العالمي. ونذكر أن في إنتاج جمعية أدب الأطفال أدباء استطاعوا أن يرتقوا بأعمالهم إلى مستويات رفيعة في التعبير عن الواقع بهمومه وأحلامه. وقد عبر هؤلاء الأدباء عن مبادئ وأفكار مهمة في عالم الأدب الموجه للأطفال. وأذكر في هذا المجال الأديب عبدو محمد في أكثر من عمل قصصي، عبّر من خلاله عن تجارب حياتية مهمة من عالم القرية.. ونذكر من هذه الأعمال المتميزة قصته (الشيخ والأزهار) التي تناول فيها موضوعاً مهما في حقول التربية والتعليم.. وتشكل هذه القصة خطوة جديدة في موضوع التأكيد على أهمية الوحدة والاتحاد، وعلى أهمية قيمها العظيمة، وتسلط الضوء على العالم الجمالي الساحر لهذه الوحدة. كما تشكل هذه القصة، دعوة صريحة للخروج بالتربية والتعليم إلى آفاق جديدة. ونذكر أيضاً الأدباء نزار نجار، وموفق أبو طوق، وموفق نادر؛ ولا ننسى دور المرأة في الارتقاء بأدبنا الطفلي، بتقديمها أعمالاً أدبية متميزة، تنم عن اهتمام كبير وفهم عميق لقضايا الطفولة في عالمنا المعاصر. وتعدّ الأدبيات نظمية أكراد وحنان درويش ومريم خير بك، من رموز حركتنا الأدبية التي استطاعت أن تحتل مكانة مرموقة في حركتنا الأدبية الموجهة للأطفال..وتستقبل جمعية أدب الأطفال، في كل عام أدبيات جديدات، نرى في إبداعهن طموحاً كبيراً، يبشرنا بإنتاج أدبي متميز.

إضافة إلى أعضاء جمعيتنا من أدباء الأطفال، تعرف ساحتنا الأدبية أدباء معروفين في حقول أدب الأطفال، ومنهم الشاعر المعروف شوقي بغدادي، والشاعر صالح هواري، والأديب المعروف زكريا تامر والأديب عادل أبو شنب وآخرون ممن ساهموا في تأسيس أعمدة أدبنا الطفلي. ولا ننسى أيضاً الأديبة الراحلة دلال حاتم وإسهاماتها المهمة في أدب الأطفال.

وفي نهاية المطاف نقول إننا نقر ونعترف ونعتز بإنجازات أدبنا الموجه إلى الأطفال..ولكن لا ننسى أننا ما زلنا نراوح ونكرر ونجتر العديد من المواضيع، ونقلّد أحيانًا تقليداً أعمى. وهذا لا ينطبق على أعمال أدبائنا جميعًا؛ بل على بعض الأدباء الذين مازالوا يرون في أدب الأطفال، طروحات (مواضيع) مثالية، تعبّر عن قضايا تربوية، تُقدم لأطفالنا بصورة مباشرة. ولا ننسى أيضاً أن العديد من القصص الموجهة للأطفال ما زالت غارقة في رومنسيات ومثاليات مضى عليها الزمان، ولم تعد تصلح لواقع يعيش قضايا ومشاكل ملحة، تحتاج إلى أديب مبدع يحلل عناصرها، ويفتح أمامها آفاقاً واسعة رحبة للحوار والمناقشة

ومادام الحديث عن المبادئ التربوية والفكرية في أدب الأطفال، فسأبدأ بقصة للأديب عبدو محمد، عنوانها (الشيخ والأزهار) التي رأيت فيها لوحة أدبية متميزة. كتبها الأديب بأزهاره الإبداعية، التي تستحق أن نقف أمامها، لتحليل توجهاتها التربوية، وتعرّف دلالاتها الفكرية. وتستحق هذه القصة أن نتحدث عنها طويلاً، لأنها أولا تنطلق من فكرة نبيلة سامية، تهدف إلى تأكيد الروح الجماعية، وتأكيد تفوق القيم الجماعية، الغنية والكبيرة، في مواجهة القيم الفردية. ففي القيم الجماعية أو الجمعية، تكمن، ليس فقط القوة، كما جاء في المثل الذي قرأناه وعرفناه في الماضي، من خلال الوالد الذي جمع أبناءه، وهو على فراش الموت، ليذكرهم بأن من الصعب كسر العصي مجتمعة، ولكن من السهل أن نكسرها فرادى.. ومن خلال المثال، يوصيهم بالتمسك بالوحدة والاتحاد، لأنهما خير ضمان للمحافظة على حياتهم، في مواجهة الواقع وظروفه القاسية. لكن هذه الوحدة، لدى الأديب عبدو محمد، لا تكمن في القوة فقط؛ بل يكمن فيها الجمال والكمال أيضاً. إذن هنا إضافة جديدة في عالم التربية والفكر، يقدمها الأديب عبدو محمد في قصته التي، يبدو أنه تردد في تثبيت عنوانها، فاحتار بين عنوانين الأول (الشيخ والأزهار) أو (المعلم والأزهار).. أما أنا فأفضل أن تأخذ هذه القصة عنوان (الشيخ والأزهار)، لأنها تكون بذلك أقرب إلى التراث، وأقرب إلى الفكر الديني، الذي نعرف أن تعليم الأطفال، انطلق منه، قبل أن يصل إلى المدارس التعليمية الحديثة..وأقصد هنا، في تفضيلي لهذا العنوان (الشيخ والأزهار) التعبيرَ عن أمنيتي وتطلعاتي إلى أن يخرج الفكر الديني والتراث، بصورة عامة، إلى الحقل.. إلى الهواء الطلق، ليستطيع التقدم إلى الأمام، ويعيش الحياة بمعطياتها الطبيعية، وليس بمعلومات أرشيفية جامدة. فقصة الأديب عبدو محمد تتحدث عن شيخ كتّاب، خرج وتلاميذه إلى الحقل، أو لعله أخرج تلاميذه إلى الحقل.. أي إلى الطبيعة الملهمة. وهنا بيت القصيد.. وبخروجه تحرك الفكر، وانتعش الإلهام العفوي، وامتدت فاعلية هذا الإلهام إلى الأطفال، في كل الحقول والمجالات، فانطلقوا يعيشون الحياة، كما تعيشها الطيور والفراشات، في يوم ربيعي كريم. وبعد أن ارتوى الأطفال من اللعب ـ وهنا يذكرنا الأديب ببعض الألعاب المحلية، منها (الاستغماية) و(وتحتك بيضة) و(شد الحبل)..وبعد هذه الألعاب الماتعة، والاستجمام، الذي عاشه الأطفال، عبر التواصل الحي بالطبيعة، يبدأ الامتحان، الذي يرتقي فيه الأستاذ إلى أرفع درجات العطاء العلمي ـ أو التعليمي، الذي يطرح فيه الأديب منهجه الأرقى، في التعليم الفلسفي ـ الفكري ـ الجمالي، ليعطينا مثلاً، استنتاجيًا (أي ليس تلقينياً)، عميقاً في دلائله ومعطياته الفلسفية؛ أي عبر التعليم غير المباشر، الذي يؤكد المهتمون بالتربية، أهميته ودوره الفعال، في تعميق أسس المبادئ وجذورها، تلك التي نسعى إلى ترسيخها في نفوس أطفالنا الأحباء وأرواحهم. هنا يطلب الشيخُ من التلاميذ أن يأتي كل واحد منهم بأجمل زهرة يختارها من بين زهور الحقل.. فيجلب كل واحد منهم زهرة، ويقدمونها لشيخهم. فإذا تمكن الأطفال من الاختيار، بذوق نعرف أنه عفوي، تنقصه الخبرة والتجربة، فإن معلمهم الشيخ، وقف غارقاً في حيرته، المنبعثة من إعجابه الشديد، وحبه الكبير للأزهار، ليكتشف، أو لعله ليكشف حقيقة جمالية رفيعة، تنبثق من اتحاد الأزهار وتكاملها في وحدة جمالية راقية. ولعل الرقي الأسمى في هذه الخطوة، تكمن في إشراك الأطفال في عملية الكشف والاكتشاف، الذي أرى أنه سيشكل انعطافاً حاسماً، ليس فقط في رؤيتهم وذوقهم الجمالي، بل أيضاً، سيكون له أثر كبير في توجهات طبيعتهم السلوكية ـ الأخلاقية، والفكرية، وفي حياتهم العملية بصورة عامة. لا بد أن ننوه هنا إلى الدور الحساس والمرهف للشيخ الأستاذ، الذي استطاع أن يوصل تلاميذه إلى موضع قريب، يساعدهم على القيام بمفردهم، أو بالتعاون معه، باستنتاج مهم، وهذا يأتي ضمن اكتشاف أهم، يغني قناعتهم وأفكارهم، الأمر الذي سيؤثر على طبيعتهم ومبادئهم الأخلاقية. واللوحة التي يعرضها الكاتب، تنبض بالجمال. يقول الشيخ الأستاذ لتلاميذه، بعد أن مدوا إليه أيديهم بالأزهار، ليختار منها الأجمل:(لم أستطع اختيار الأجمل يا أولادي، فقربوا زهراتكم من بعضها لأراها.. فربما استطعت اختيار إحداها) وحين شكّل الأطفالُ بأزهارهم باقة مؤلفة من خمس عشرة زهرة، من كل لون وشكل ونوع، باقة جميلة جمالاً يعجز الوصف عن بيانه، ابتسم المعلم، وهو ينظر إلى الباقة الجميلة أمامه، وقال يخاطب الأطفال:(أليست الزهرات أجمل وهي مجتمعة مع بعضها هكذا؟) وهنا تبرق تلك اللحظة التي يكتشف فيها الأطفالُ جمالَ ما صنعوا. يقول الطفل الذي يسرد الأديبُ القصةَ على لسانه:(نظرنا إلى الباقة الملونة أمامنا، دهشنا ونحن نرى جمالها الرائع..وقفنا طويلاً ننظر إليها بإمعان، نسينا جمال زهراتنا المفردة، وأُخذنا بجمالها مجتمعة، حتى كدنا ننسى ما حولنا).

وأنتقل إلى أديب آخر هو الزميل وليد معماري، وأتوقف مع قصته المعنونة بـ(الريح والأقوياء) التي رأيتها من القصص المتميزة في أدبنا الحديث. ففي هذه القصة نواجه ثلاث شخصيات، أرى أنها تمثل رموز الواقع، بحركاته الثلاث ـ الحاضر والماضي والمستقبل، وعلاقتهم بالحياة. والشخصيات هي: الجدّ الذي يمثل الواقع بخلفياته التاريخية، والطفل الذي يمثل الواقع بآفاقه المستقبلية، والحاضر الذي تمثله الأشجار والمنزل وأشياء أخرى. في هذه القصة، يضعنا الأديب معماري أمام معادلة رياضية في مضمونها، شاعرية في معانيها ودلالاتها الإنسانية. فعندما تهب الريح قوية، يطلبُ المستقبل المتمثل بالطفل، من جده، ضمانات لاستمرار حياته، حين يعبر عن خوفه من شدة الرياح وقسوتها. فإذا كان هذا الواقع بحاضره وماضيه، يستند إلى قاعدة قوية متينة، استطعنا أن نفوز بضمانات آمنة للمستقبل. وها هو الجد أي التاريخ، ينقل إلى حفيده الطفل، ثقته بنفسه، عبر معادلة تؤكد، بكلمات مأثورة تقول: (الريح قوية بقدر ما نكون ضعفاء أمامها، لكنها ضعيفة إذا كنا أقوياء) كلمات بليغة، تعبر عن معادلة رياضية فكرية دقيقة وبليغة في معانيها ودلالاتها الفلسفية. فإذا أردنا أن نفك رموز هذه المعادلة، فإننا نستشف مشاعر أديبنا الشاعر، الذي يريد لنا أن نسير إلى المستقبل، على أسس تضمن له السلامة والأمان. فالأشجار القوية، الضاربة بجذورها في أعماق الأرض لا تخاف الريح، والمنزل المبني على أسس عميقة، لا يخاف قسوتها، والحاضر لا يخاف المستقبل، إذا كان مبنياً على أسس سليمة. كل هذه المعاني والدلالات، تأتينا من خلال حوار بسيط، ولكنه عميق في معانيه، بين الجد وحفيده.. أي بين الحاضر، بخلفياته التاريخية، والمستقبل، بآفاقه الرحبة المفتوحة. وحكاية سمعان الأحمق، لا تبتعد بأهدافها، عن الفكرة التي حركت أحداث القصة الأولى، ورسمت شخصياتها، لأنها ترتبط بطبيعة الفرد، وسلوكه وأهدافه في بناء الواقع، الذي نريده جميعاً، مع الأديب معماري، أن يصمد في مواجهة رياح القدر، وعوامل الزمن وتحدياته. وأعتقد بأننا لا نبتعد عن الحقيقة، إذا رأينا أن الأديب، يؤكد في قصة سمعان، أن لا حياة ولاَ عقل، ولا أمن، ولا مستقبل للإنسان، بعيدا عن الجماعة، وروح الجماعة. فالأحمق هو الذي يرفض الجماعة، ويبتعد عنها.. وقد استطاع سمعان أن يتغلب على سلبياته، وصار محباً للناس. هذه

هي المبادئ التي ينادي بها الأديب معماري في العديد من قصصه، إذ إنه يرى محبة الناس، مفتاحاً لحل جميع المشاكل والمتاعب والمصائب التي يتعرض لها الإنسان.

وأنتقل إلى مثال آخر من عالم أديباتنا في سوريا، هي الأديبة نظمية أكراد، التي ظهرت على الساحة الأدبية، بمجموعتها الأولى، الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب عام 1982، بعنوان (الأفعى والراعي) وتضم ست عشرة قصة، يميل معظمها إلى طابع الحكاية؛ إذ إن أكثر قصص المجموعة، تستند، أو تنهل أحداثها وشخصياتها من كنوز الأدب الحكائي، أو تتزيا بمنمنماته الطريفة. وقد صدر لها، مجموعة قصصية جديدة عن اتحاد الكتاب العرب، بعنوان(النمر الشجاع) وتضم ثمان قصص، ولها أيضاً مجموعة ثالثة بعنوان(الحصان الأزرق) صادرة عن اتحاد الكتاب العرب عام 1987، وتضم سبع قصص.

وحين نبحث في الأدب عن القيمة الغذائية، أي الفكرية والروحية والتربوية، ندرك أن هذه القيم هي التي تشكل النواة، والبذرة التي نأمل غرسها في نفوس الأطفال، في وقت يشهد فيه الأدب، هياماً بمزركشات ومنمنمات لغوية، لا تشير إلاّ إلى أن كاتبها، غارق في ذاته الفارغة من أي هم وفكر. ومن مجموعتها الأولى، تحاول الأديبة تسليط الضوء على السموم القاتلة للطمع، وتعكس الضوء على مشاعر الانتقام، التي تقود صاحبها إلى الهلاك أيضاً. فتؤكد الأديبة نظمية أكراد في قصتها الأولى أن سموم الطمع ومشاعر الانتقام، تفسدان الحياة، وتحرق ما منحته لنا هذه الحياة، من مفاجآت سارة، كافأتنا عليها، اعترافاً وتقديراً على ما وهبتنا إياه الطبيعية. فحتى الفن، الذي يبهج الأرواح، ويسحر الألباب، ويفتح أمام صاحبه الكنوز، يموت أيضاً، إذا داهمته نيران الطمع، أو مشاعر الانتقام، كما حدث لأبي إبراهيم وابنه، في قصة (الأفعى والراعي). فالقصة تقدم إلينا راعي القرية (أبو إبراهيم) الذي يصطحب قطيعه ويوغل به في السهول المحيطة؛ حيث المراعي الخضراء.. وفي أوقات الاستراحات، يُخرج أبو إبراهيم نايه، ويأخذ بالعزف عليه، فتنبعث منه أنغام عذبة، تبدد صمت السهول، وتصل إلى مشارف القرية، والفراشات تطير حوله، جذْلة بأجنحتها الملونة. ذات يوم تنفتح عليه أبواب الرزق، حيث يشاهد أبو إبراهيم أفعى، تقدم له، في كل مرة تستمع فيها إلى ألحانه، قطعة ذهبية. إننا هنا أمام رموز الحكاية ومعانيها. فالأفعى هي التي تجود بالمال، وتعبر عن «الرزق الوافر» الذي بدأ يتدفق على هذا الراعي الفقير، الذي يصفه الأدب العربي بأنه من أجهل الناس، فقال في حقه العربُ:(لا تستشيروا راعياً، ولا معلماً، ولا كثير الجلوس مع النساء).وقال عنه المتنبي:/ يموت راعي الضأن في جهله/..وعندما يكثر المال، يفكر أبو إبراهيم بالحج، فينيب عنه ابنه، في رعي الأغنام.. فتستمر الأفعى بإكرام الشاب على عزفه وألحانه الشجية. وهنا يتأجج الطمع في ذات الشاب، ويدفعه إلى التفكير في قتل الأفعى، كي يستولي على الكنز كله، لكنه يفشل، وتفلح الأفعى في قتله، لتضع الأفعى ببوض الانتقام، أو الحسرة والألم في نفس أبيه. فهل تعود الأمور إلى مجاريها؟ وهل يصلح الفن ما أفسده الطمع والطيش؟ تؤكد الكاتبة، في قصتها، أنه من المستحيل أن يصلح الدهرُ كوارث الطمع والطيش. يعود أبو إبراهيم من الحج، ليرى أن الأمور انقلبت رأساً على عقب، فَقد قتلَت الأفعى ابنه؛ أي تلك الأفعى التي كانت مصدر رزقه وثرائه، فأصبحت تلك الأفعى حذرة، ولسان حالها يقول:(اتق شرَّ من أحسنت إليه). ثم غابت الأفعى بلا عودة. هكذا يجني الإنسان على نفسه، وهكذا يدّمر ينابيع رزقه. وهنا لا ننسى الأفعى كرمز للمال، الذي يشعل جنون الطمع في الإنسان. وهنا أيضاً لا بد أن نتذكر السيد المسيح

عليه السلام، في نصيحته لمن أراد أن يكون تابعاً له:(اترك أموالك واتبعني) فالمال مخيف، ومصادر المال، لا تحمد عقباها. فكأن المال مرتبط بالأفعى، إن لم تؤذِ صاحبَها أصابت ذريته بالأذى. وهذا ما نراه في الواقع، وما تبرهن عليه الأحداث منذ الأزل. وأرى أنه من الضروري أن نضرب على هذا الوتر كي نذكّر الكبير والصغير، بخطورة المال، وما يجلبه للإنسان من كوارث مدمرة، لأنه يفجّر نوازع الطمع في صاحبه.

في قصة(ما بداخلك أقبح) تقدم لنا الأديبة قصة عن الغراب الذي أراد أن يكون له صوت جميل كصوت البلابل، ظناً منه أن لون الريش، يمكن أن يمنح صاحبه الصوت الذي يريده ويتمناه. فقام هذا الغراب بتلوين ريشه، إلاّ أن هذه الألوان الجميلة، لم تحقق له أحلامه، فعاد خائباً، إلى أهله وبني جنسه، ليجد مصيبة أخرى بانتظاره؛ حيث استنكرته الغربان ولم تعرفه، لأنه غيَّرَ لونه، فالتبس الأمر على أقرب الناس إليه..ولم يُعرفْ هذا الغراب إلا حين سمعت الغربانُ صوته، فتكاثرت عليه، وأخذت تنتف ريشه، ولم تتركه إلاّ منتوفاً أحمر الجلد، يبكي وحيداً حزيناً، وذنبه الوحيد أنه لم يستطع أن يصبح بلبلاً، ولا أن يعود غراباً كما كان.

القصص والحكايات التي تناولت موضوعاً كهذا ليست قليلة، وكلها تدين (الشخصيات) الشبيهة بالغراب، وتطالبه وأمثاله بالبقاء ضمن الدائرة التي خلق فيها. هنا نغلق الدائرة، ونحن نتوجه إلى توبيخ الغراب الذي أراد أن يكون له صوت جميل. وحين نقوّم شخصية الغراب نرى في أمنيته هذه نقطة إيجابية. لكن المشكلة الأهم في هذه القصة، ليست في الأماني والأحلام؛ بل في كيفية تحقيق هذه الأحلام. فقد

قتلتْ هذا الغراب أحلامُه، بأن يكون له صوت جميل، لكنه لم يستطع تحقيق أحلامه، حين ظن أن صوت البلبل مرتبط بالشكل واللون، وأن تحقيق هذا الحلم سهل بسيط، لا يتعدى تلوين الريش بألوان تشبه صاحب الصوت الجميل. إضافة إلى ذلك، فالقصة تؤكد على لسان كاتبتها، أن أحلام الغربان لا تثمر أبداً، لأنها تنبع من الحسد والغيرة. والحسد والغيرة، لا يملكان القدرة الكافية، لإيصال صاحبهما إلى الغاية المنشودة؛ بل العكس هو الصحيح؛ فهي التي تقود قرينها، إلى صحارى الندم والألم والحزن، كما حدث مع الغراب.

وتخوض الأديبة غمار أدب الخيال العلمي، في قصتها(زيارة إلى كوكب آخر)، تؤكد من خلالها فكرتين، تعبر في الأولى، عن أحلامها وأمانيها في تكنولوجيا متقدمة، لا تلوّث ولا تزعج، ولا تسبب أي أذى في مجتمع يكون فيه الأطفال قوة فاعلة، تحيطهم الرعاية والعناية من كل جانب. وتعبِّر في الفكرة الثانية عن أهمية المحبة والعلاقات الحميمة، وتضعها فوق كل الاعتبارات. وترفض الأديبة الحياة، مهما كان نوعها، ومهما ضمَّت من القيم، بعيداً عمن تربطنا بهم علاقات حميمة، في رياض الوفاء وحقول المحبة. فالقصة تتحدث عن عادل، من قرية المحبة، يدعى إلى زيارة كوكب آخر، في رحلة أرادها أن تكون سريعة، كي لا يُقلِق عليه أهله، فشاهد هناك ما أثار إعجابَه، وبخاصة في مجال التكنولوجيا المتطورة، التي تسير على الطاقة الشمسية..وفي طريقه إلى الكوكب الآخر، قرأ عادل كتاباً عن ذلك الكوكب، من خلال عدسة مُترجِمَة، قدمت إليه معلومات عن المعامل وعن الطبيعة والمدارس..كما شاهد عادل كلّ ما قرأه مصوراً، وعرف أن المركبة التي تقله، تسير بسرعة الضوء. وباختصار، فقد رأى عادل هناك وعاش

أحلامه وما يتمناه.. وعندما عاد إلى أهله، رآهم قد شاخوا وتقدم بهم العمر، ومات والده، بعد أن انتظره طويلاً، بينما لم يزل هو شاباً..وقد أحزنه هذا الأمر، لأنه شعر بأنه تميز، أو حقق كسباً ما، لم يشاركه أهله به. إذن، يحلم عادل ويتمنى التطور، لكنه لا يريده أن يسير إلاّ مع أهله وناسه في هذا التطور. وهنا ندرك بأن الروح الجماعية، قوية وصحيحة لدى عادل، وهذا ما نسعى إليه، ونريده لأطفالنا، ومستقبلنا الذي نطمح إليه. وهنا نقرأ دعوة صريحة إلى بيئة صحية، لا يلوثها التقدم التكنولوجي، كما نقرأ أيضاً دعوة إلى علاقة حميمة بين الإنسان والطبيعة، إضافة إلى نقطة مهمة جداً، تؤكدها الكاتبة، ألا وهي: كم نحن متخلفون عن كواكب أخرى، تمكنت من الحفاظ على شباب الإنسان وصحته، من خلال واقع نظيف نقي، يمدنا بالصحة والحيوية والشباب.

في قصتيها الأخيرتين(الوقت والحلم) و(الصيف الشاب) في مجموعتها القصصية(النمر الشجاع) تطرح الأديبة موضوع الزمن، تحاول الكاتبة من خلاله تقديم صورة مبسطة عن الزمن، تقربه كمفهوم من استيعاب الطفل. في القصة الأولى(الوقت والحلم) نعيش مع قصة طفل يشعر أن الزمن يقف عائقاً أمام أحلامه وأمانيه في ممارسة ألعابه، كما يمارسها الأطفال. وتحاول الكاتبة أن تقنع الطفل، بأن للعب وقت وللعمل وقت..ومن غير المفيد أن نعطي وقتنا كله إلى اللعب فقط. في هذه القصة نتعرف إلى طفل يسعى إلى الانتقام من الزمن. وهذا الانتقام، يقود الطفل أو لعله، يقربه من تعرُّف الزمن، أو الاهتمام بهذه الكلمة، التي تخزن في مضامينها الكثير. ينطلق الطفل، في البداية من مشاعر الكراهية والحقد، الأمر الذي يدفعه إلى تحطيم الساعة، ظناً منه أنها تمثل الزمن. لكن الكاتبة تقدم إلينا مدخلاً تؤكد من خلاله أهمية اللعب في حياة الأطفال. وقد يقود هذا المدخل إلى المعرفة. فمن خلال اللعب، يحلّق الطفلُ بطائرته، وعبر الخيال، ليتعرف الواقع، ويصطدم بما يهدد هذا الواقع من أخطار. هنا نستشف نداء الكاتبة، ودعوتها الموجهة إلى الأطفال، كونهم عماد المستقبل، وهم المعنيون بحماية مستقبلهم، وحماية اللعب، كحق مقدس، لنا جميعاً، في الحاضر المستقبل. فهناك أخطار تهدد هذا المستقبل، علينا أن نكون حذرين تجاهها، والعمل من أجل التغلب عليها ليصفوَ لنا اللعب الذي يعشقه الأطفال. في هذا المعنى تكمن الفكرة الأساسية لهذا في القصة. ويمكن الحديث عنها طويلاً، لكنني أود الإشارة إلى أن القصة الثانية عن الزمن، اعتمدت أيضاً على حوار بين الفصول، في تفسير الزمن، وتوجيه الاهتمام إلى احترامه وتقديره، وإنصافه، كي لا نظلمه بكلمات وجمل تعبر عن احتقار، أو كراهية. تنطلق الكاتبة من لوحة قاسية، لكنها تنم عن محبة الطفل واهتمامه بجدته، حين يتأمل وجهها الذي يختزن السنين الطويلة، وهمومها ومتاعب الحياة وجمارها. عندئذ يسأل الطفل أحمد، عما يكمن خلف هذه العلامات، فتجيبه الجدة:(إنه الزمن الذي يأتي متسللاً، كمن يمشي على رؤوس أصابعه.. ويذهب بسرعة من دون أن يراه أحد. ثم يجري بعد ذلك، حوار بين أحمد وفصل الصيف، أرى أنه يميل إلى الحوار النظري، عن الزمن. المهم في هذه القصة أن الكاتبة تنطلق من الإنسان الذي أرهقه الزمن، وأتعبته الأيام. وأرى في ذلك دعوة لنا وللأطفال لأن نتأمل آثار الزمن، في كل شيء نمر به، بما في ذلك وجوه البشر، على الرغم من أنني لا أميل إلى هذه المواضيع، في سني الطفولة، لكنني في الوقت نفسه، لا أرى مانعاً من طرحها، بصورة خفيفة وشفافة، تفعّل قدرة الإنسان في مواجهة نوائب الزمن وأعبائه القاسية.

أدب الأطفال في مناهجنا التعليمية

مريم خيربك

إنَّ المناهج التعليمية ذات أهمية بالغة بالنسبة إلى الإنسان في دول العالم كافة، وفي عالمنا العربي بالذات، وأقول في عالمنا العربي بالذات، لأنها المصدر الأساسي لمخزون الطفل اللغوي والمعرفي العلمي والتربوي، حيث الجانب الثقافي لا يشكل رافداً مهماً لهذا الطفل لأسباب كثيرة، ليس الآن وقت تفنيدها..

إذن مناهج التعليم هي ما يشكل الأساس لبنية الطفل التعليمية، لذلك يجب أن تكون هذه المناهج مدروسة بدقة من قبل فريق عمل يُنتقى بحيث يستطيع الحكم الدقيق عليها:

من الناحية العلمية لجميع العلوم
من الناحية الاجتماعية
من الناحية النفسية
من الناحية اللغوية
من الناحية الأدبية

ولعل الناحية الأدبية هامة جداً إلى جانب اللغوية، لأنها يجب أن تكون الوعاء الذي ينقل كافة المعلومات إلى الطفل للوصول به إلى درجة علمية سلمية في مبناها، وإلى مستوى لغوي يستطيع عبره أن يعبر عن جميع أفكاره بوضوح بلغة سليمة قوية، وإلى حالة أدبية تربط ما بين الواقع والخيال فتفجر إبداعاته، وتشوقه أكثر فأكثر إلى العلم والمعرفة وجميع جوانب الثقافة، ولاسيما في هذه المرحلة بالذات من عمر الإنسان، وهي في المرحلة الأساس في بناء شخصيته..

وإذا كنت أقول هذا بالنسبة إلى جميع مواد التعليم؛ فإنني أتوقف عند المادة الأهم في مناهجنا، وهي مادة اللغة العربية، أو كما تُسمى الآن حسب المناهج التعليمية، التعليم الأساسي، (العربية لغتي).

في دراستي هذه سأتوقف عند أربعة صفوف من مرحلة التعليم الأساسي وهي: الصف الأول والثاني والثالث والرابع، متناولة فقط الفصل الأول من العام الدراسي لكل صف من هذه الصفوف حرصاً على عدم الإطالة في موضع كهذا لنشر الدراسة، وهو ملف أدب الأطفال في سوريا..

لذلك سأبدأ بكتاب (العربية لغتي للصف الأول من التعليم الأساسي ـ الفصل الأول). إنني وأنا أبدأ بالصفحات الأولى يُصافح عيني نشيد (حماة الديار) لخليل مردم بك، وهو نشيدنا السوري الذي نعتز به ويحفظه كل إنسان في سوريا، لأنه يتعلمه كأول ما يتعلم حين يدخل المدرسة وينشده دائماً؛ لذلك لن أتوقف عنده كحالة أدبية في هذا المنهاج.. في الصفحة 18 نجد قصة بالصور وهي قصة النملة والبطة.. ولا أدري إن كانت المعلمة تحكي القصة، ومن ثَمَّ يقرأ الطفل الأسئلة حولها في هذا الكتاب.. في ص 45 أجد أيضاً مجموعة من الأسئلة التي تُعدّ الإجابة عنها في مجملها قصة؛ بينما نقرأ في الصفحة 46 وتحت عنوان أسرتي متعاونة نصاً بسيطاً جداً بلغته وخياله وصياغته؛ بحيث لم أجد أنه يغني لغة الطفل أو خياله أو حتَّى معرفته بالكثير.

ثم أجد مجموعة أناشيد للشاعر سليمان العيسى وهي:

ماما ماما
يا أنغاما
ونشيد:
أرسم ماما
أرسم بابا
بالألوان
والآخرُ:
عمي منصورٌ نجار وهو من الأناشيد المعروفة
ونشيد عندي علبة للتلوين
فيها أقلام التلوين
ونشيد إلى طفل
أهوى الحركة
دعني أقفز مثل الأرنب
ونشيد اسمي كندة
اسمي موسيقا عربية
نفح الأزهار البرية
يضاف إليها ثلاثة أناشيد لآخرين مثل:
نشيد: زاي زاي
تلك زرافة
تقفز من فرح ولطافة
وهو مجهول القائل
ونشيد: نظافة الأبدان من صحة الإنسان
وأيضاً مجهول القائل
ونشيد عبد الرحمن حيدر: أستاذي مسرور مني
يسأل يسأل دوماً عني
أعدو «أعدو»
إلى مدرستي
أحمل كتبي
في محفظتي

ونشيد يا عامل النظافة أيضاً بلا اسم قائله.

وفي النهاية نشيد أحمد الخوص وهناء برهان:

ضوءُ أخضر يعني امشِ
ضوءُ أحمر قفْ لا تمشِ
درس في آداب السيرِ
لن أنساه طولَ العمر

ربما أستطيع أن أقول إن هذا ما وجدته في الفصل الأول من نصوص أدبية، تؤسس أهم مرحلة من عمر الطفل ومن معرفته وثقافته كأساس لما سيليها..

وقد وجدت أن الطفل بقدر ما يحتاج إلى الخيال فيما يتلقاه كحاجة هامة في بنيته النفسية في هذه المرحلة من العمر، بقدر ما تبتعد النصوص النثرية المطروحة عن تلبية هذه الحاجة وتعزيزها.. فهذه النصوص التي أرادت أن تملأ ذهن الطفل ببعض المعلومات مثلاً عن تعاون الأسرة، ابتعدت كلياً عن أسلوب التشويق الذي يحتاج إليه الطفل كثيراً، وأيضاً ابتعدت عن اللغة الأدبية التي كانت ستجعل هذه المعلومة أكثر التصاقاً بذهن الطفل وذاكرته.. ولا أظن أن القحط الذي تعانيه ساحة هذه المرحلة العمرية أدبياً سيصل إلى درجة انعدام النصوص القصصية التي تلبي الطلب بالنسبة إلى قيم كهذه: قيمة التعاون، قيمة المحبة داخل الأسرة.. وقيم أخرى تناسب الطفل في هذا العمر. أما بالنسبة إلى النصوص الشعرية فكما ذكرت، معظمها للشاعر سليمان العيسى، وقليلها لمجهولين، وقليل القليل لأسماء أخرى..

أما ملاحظاتي عنها فهي:

1 ـ أن بعض أناشيد الشاعر سليمان العيسى تحمل مفردات ومعاني لا يفهمها الطفل في هذا العمر، لكنها كقيم وأفكار جيدة ومناسبة في معظمها.

2 ـ لماذا لم نأخذ أناشيد لشعراء آخرين؛ بحيث يكون

نصيب الأطفال من تنوع الشعراء أكثر. والأسلوب الشعري المتنوع سيغني سليقة الطفل التي تتشكل.

3 ـ أمر مهم معرفة اسم الشاعر مقصود، أم خلت الساحة الأدبية العربية بشكل عام والسورية بشكل خاص من شعراء للأطفال كتبوا ما يناسب الطفل، وما يناسب هذه المناهج التي ستكون أغنى بتعداد النصوص وتعداد الكتاب أكثر.

أكملت مشواري في المنهاج التعليمي اللغوي في مرحلة التعليم الأساسي، وتمعنت في كتاب العربية لغتي ـ الفصل الأول ـ الصف الثاني الأساسي.

النص الأول كان بعنوان (ما أحلى بيتي) كل طفل يتحدث عن بيته ولماذا يحبه مثل:

وقف سعيد فخوراً، وقال: ما أحلى بيتي، فيه ألعابي الجميلة، وبين أحضانه أنمو.. الخ.

في هذا النص أجد أنَّ هذا الحوار لا يمثل الطفل في هذا العمر لا لغةً ولا فكرةً؛ بالإضافة إلى الأسلوب البعيد عن أي تشويق، ولو سيقت هذه الأفكار بأسلوب أدبي أكثر رقة وشفافية لكانت أقرب إلى ذهن الطفل.

أيضاً يتلوه نص (مشاهدة التلفاز) ونص (أختي الصغيرة تمشي) ونص (نزهة قصيرة)، وعبر الأسئلة قصة (البطتان والسلحفاة) الشهيرة وزمن (مركز التسوق) وقصة (العصفور ورفاقه) لطلال حسن، وهي قصة جيدة ومشوقة، وبعض الأناشيد، كثيرها للشاعر سليمان العيسى، وقليلها لآخرين:

كنشيد حقيبتي للدكتور عبد المعطي دالاتي وهي ذات موسيقى ومعانٍ مناسبة للطفل، ونشيد حليم دموس: عليكِ مني السلام يا أرض أجدادي

وهو نشيد وطني سيق بموسيقا سلسة ومناسبة.

ونشيد مدينتي لأنطون فوال، وهي قصيدة قد تكون موسيقاها غير منسابة بسلاسة، لكنَّ معانيها جيدة وجميلة..

نلاحظ في هذا الكتاب الشحَّ في النصوص القصصية، والجفاف وعدم التشويق في معظم النصوص النثرية الطويلة نسبياً، والكثيرة نسبياً في القصائد والأناشيد، وعدم تنوع الشعراء كثيراً، وهذه سمة ما سبق في الصف الأول، لذلك أستطيع أن أقول بالإصرار على مقاطعة الأدب القصصي في هذا المنهاج التعليمي؛ علماً بأن تأسيس ملكة الطفل الأدبية واللغوية تكون في هذه المرحلة الأساسية وما قبلها، ولو عدنا إلى علم نفس الطفل وعلم التربية، لوجدنا أن الطفل في مثل هذا العمر أحوج ما يكون بناء لغوي ونفسي إلى القصة التي من خلالها أستطيع أن أغني مخزونه المعرفي

وأحرض خياله، وإلى النص الشعري الذي يحفظه بسرعة، لذلك يفككه كأفكار ومفردات مع تطور هذا المخزون الذي تشكل عنده..

ولعلي أُصرُّ على ضرورة وجود النص الأدبي في هذه المرحلة العمرية في بيئتنا العربية بالذات، غياب ثقافة الاهتمام بالطفل من الناحية الثقافية عبر المطالعة.. هذه الثقافة التي يجب أن تعوضها مناهجنا التعليمية.

وإذ أنتقل إلى (العربية لغتي) الصف الثالث ـ الفصل الأول

أتوقف عند نص (أسرتي) للدكتور شوقي المعري، وهو نص يراعي المرحلة العمرية للطفل لغةً وقيمةً وأسلوباً؛ حيث يزخر بالقيم التربوية بأسلوب مباشر وغير مُرَمَّز..

يتلوه نص لأديب الأطفال بيان الصفدي (الفائز الأول) وهو يحمل قيمة تربوية هامة أتت عبر أسلوب واقعي مأخوذ بكامله من واقع الطفل في مدارسنا، ودخوله في عالم الخطابة والفصاحة عبر الأنشطة الطليعية..

بعده يأتي نص (هواية أحبها) للدكتور طارق البكري.

وهو نص جميل، يحمل قيمة أدبية وتربوية مناسبة للطفل في هذا العمر، ويتمتع بخيال إبداعي يحرِّض مخيلة الطفل..

أما نص (طبيب عربي) ليوسف فرحات، فهو من أدب الطفل التعليمي، يحمل قيمة تاريخية، تربوية، مصاغة بأسلوب مناسب يعرِّف الطفل بابن النفيس العالِم إنما بعيداً عن التشويق، وربما هذه سمة معظم النصوص التي تتحدث حول التاريخ والشخصيات التاريخية والعلمية وغيرها.

يتلو هذا النص نصٌّ آخر (كيف أجعل ابني يفكّر) وهو مغفل من اسم كاتبه، بالإضافة إلى ضعفه كقيمة وكأسلوب، وحبذا لو وُضِعت قصة أخرى في المحور نفسه بحيث تكون منتقاة لتؤدي الغرض أكثر..

طبعاً يتخلل هذه النصوص النثرية التي كان منها أيضاً نص (عباس بن فرناس) و(الزهرة والعصفور الوردي) لمريم خير بك، وبتصرف، ومن (حكايات السندباد) من ألف ليلة وليلة، و(رحلة إلى بغداد) لبيان الصفدي، يتخللها نصوص شعرية: نص (أغنية الآلات الموسيقية) لنبيل ياسين، وهو نص ممتع ومشوّق للطفل ونص (تفاحة الصباح) لسليمان العيسى، و(صغار الوطن) لعبد الرحمن حيدر، و(أغنية الخريف) لمحمد منذر لطفي، وهو نص معبِّر وجميل وغني بما طرحه من معارف، و(دراجتي) للدكتور فاروق مواسي..

وقد كانت هذه النصوص بمجملها متنوعة بقائلها، معروفة لمن، وهذا أمر مهم جداً، أن تختزن ذاكرة الطفل أسماء الشعراء والكتاب، مناسبة كمواضيع، شيِّقة كأسلوب.

أما النصوص النثرية فقد كانت ما بين القصة، والنص التاريخي، والنصوص النثرية العادية.. وبهذا اختلف هذا المنهاج عن منهاج الصف الأول والثاني الأساسي، علماً بأننا نتمنى لو أخذ الأدب القصصي والأسلوب الأدبي مساحة أكبر في جميع المراحل.

في كتاب (الصف الرابع أساسي) الفصل الأول ـ نجد الملاحظات نفسها بالنسبة إلى حضور الأدب والأدباء العرب عامة والسوريين خاصة، من خلال النصوص النثرية والشعرية، ونفس المستوى الانتقائي، لذلك أكرر أن علينا اللجوء أكثر إلى الثوب الأدبي في طرح الأفكار لأنه الأكثر تشويقاً وإغناءً وملاءمة لعقل الطفل الذي يحب التشويق عبر الخيال، ويحب القصة والحكاية التي تنقل له القيمة التربوية والمعلومة والغنى المعرفي بشكل أفضل بكثير من النصوص الجافة والتقريرية.

وإذ أسوق هذه الملاحظات من دون شواهد؛ فهذا لضيق المساحة في ملف كهذالا يحتمل الإطالة والتوقف عند الجزئيات كافة.

أدب الأطفال .. هذا «الوجه الضّائع»!

وجيه حسن

يـقـول أحـدهـم: «أدب الأطـفـال كالفيتامينات للفكر، يحتاج عقل الطفل وخياله منها إلى أنواع مختلفة.. كلّ نوع يغذي جانباً من شعوره وتفكيره، ويقوّي نواحي الخيال فيه».

وبناء على ما ورد، فإنه ما من سبيل بالنسبة إلى الأطفال لتجنب الانغماس في الأدب؛ فهو يأتيهم بأشكال مختلفة، منها الكلمات والصور، وهو يطالعهم في المنزل والشارع والمدرسة ودور السينما والمسرح، وعلى الشاشة الصغيرة؛ بل ويواجههم في علاقاتهم بأصدقائهم، وعليه فإن هذه الصور الأدبيّة تختلف في قيمتها، وهو أمر كثيراً ما أغفله الباحثون نظراً لأنّ الأدب قد أصبح يرتبط في نظر الكثيرين بمجموعة مختارة من المواد.

وممّا لا شك فيه، أنّ أدب الأطفال يـؤلـف أداة فنية مـن أدوات تنشئة الطفولة التي تعدّ بحق ركيزة المستقبل المأمول، لأنه يسهم في بناء شخصيتها التي تقوم عليها في الغد شخصية المجتمع الجديد، كما أن الطفولة طاقة كامنة، لا يمكن لها أن تنطلق من عقالها بشكل كافٍ، إلا إذا عملنا ـ نحن الكبار ـ على تفتحها وانطلاقها.

ثم لا يظنّن أحدٌ أنّ طفل اليوم هو طفل صغير، بعيد عن المجتمع والمعرفة والإدراك؛ بل علينا أن نقرّ ونعترف بأنّ لدى الطفل من الطاقات والمعلومات ما يعادل ما لدى والديه أحياناً، وربما أزيَدَ، فالطفل يستطيع أن يدرك ويلتقط بأسرع وأدقّ مما نتصوّره ونعرفه عنه، «لأنّ طفل اليوم ينمو ويكبر مع الاكتشافات، ولا يشعر بأنها خارقة ومدهشة، لأنها نشأت معه، وتأثر بها أيما تأثر»!

إنّ أدب الأطفال يضعه الكبار ـ وهذه حقيقة ساطعة كالشمس ـ فهل يترتب على ذلك اختلاف مفهوم أدب الأطفال عن مفهوم الأدب بشكل عـامّ! ثم هل يستمتع الأطفال بالأدب! وأيّ أنواع الأدب يولّد المتعة في النفوس لديهم؟ وما طبيعتها؟ وفي أي سنّ يستشعر الطفل هـذه المتعة الحقيقية؟ إنها وسواها أسئلة مهمّة تحتاج إلى أجوبة شافية مقنعة، من لـدن المهتمين بالطفولة وأدبـهـا وعلم النفس والتربية كذلك.

وعود على بدء.. فإنّ أدب الأطفال الصحيح المعافى، هو منقذنا ومنقذ أطفالنا ـ فلذات الأكباد ـ من سيل الأخطار التي تدهمنا في بيوتنا ومهودنا ومواقعنا عبر الفضائيّات والإعـلام المفتوح أو «المفضوح»، كما أنّ أدب الأطفال هو الأمل في حياة مستقبليّة مشرقة لنا وللأجيال العربيّة الصاعدة المقبلة.

إن طفلنا العربيّ اليوم ـ من الماء إلى الماء ـ كان ولا يزال يعاني واقعاً لا حدّ لقبحه وفساده وتهتّكاته، ومع ذلك فلقد كان هذا الطفل نفسه ولا يزال «الينبوع الـذي يتفجّر بالضوء والـمـاء.. بالفجر والمطر» على حدّ وصف (د. عبد العزيز المقالح) «مدير جامعة صنعاء سابقاً».

عالم الطفولة ـ على الرغم من صغره ـ هو عالم كبير، واسع الأرجاء، يجعل الطفل الذي سيغدو شاباً، ثم رجلاً، شديد الصلة بواقعه وأرضه والجذور. كما يمكنه من الدخول إلى هذا الواقع بخطوات ثابتة، فلا يُفاجَأ ولا يتردّد.

ومن هنا فإنّ أدب الأطفال ليس أداة ـ بحدّ ذاته ـ لفائدة الطفل، بقدر ما هو أداة للنهوض به وبالمجتمع على وجه العموم.. بل إنه وسيلة من وسائل حياة الطفل،

التي هي أساس حياة المجتمع كله.. وعليه وبه يقوم البناء النفسيّ والاجتماعيّ والعاطفيّ والعقليّ للإنسان الجديد.

إنّ من حق الأطفال علينا ـ نحن فئة الكبار ـ أن يتذوقوا الأدب، «فالأدب ـ كما هو معروف ـ تعبير عن حكمة الإنسانيّة ورغبتها وشكوكها وأخطائها في هيئة رمـوز وكلمات وصـور، وهـو كذلك تراث يغرفُ من نبعه كلّ مَنْ يهمّه أن يرتوي من هذا النبع الزاخر»! وممّا لا شك فيه أنّ أطفالنا على موعد مع عالم الغد، فبأيّ عالم سوف يعيشون؟ ومما تجدر معرفته أنّ أدب الأطفال اليوم له تأثيره الواضح في تربية الطفل، وبالتالي في تكوين شخصيّته، لأنّ هـذا الأدب هو الباعث على خلق الاتجاهات الحميدة في نفوس الأطفال، وهو المساعد على تكوين الذوق الفني من سماع موسيقى، ومعرفة الفنون الجميلة على تعدّدها، وقصص المبدعين من فنانين ونحاتين وموسيقيين، وهو العامل على نمو ذوقهم الأدبيّ والعلميّ من خلال «القصة» التي تحتلّ المكانة الأولى في أدب الأطفال.

وأستطيع أنْ أؤكد هنا مع كثيرين، أنّ المضمون مهم جدّاً في أدب الأطفال، لأنه المحور الذي تنطلق منه توجهاتنا لتمهيد الطريق الصحيح أمام الأجيال الناشئة، وأهـم ما يتضمّنه هذا الأدب تقديم منظومة متكاملة مـن القيم والـمـبـادئ.. وعلينا أن نؤكد ـ في هذا السياق ـ أنّ المعادلة الصعبة، هي ألا نقدم إلى الطفل ما يريده هو ويميل إليه فقط، بل ما نريده نحن الكبار من اتجاهات وقيم ومُثل ومضامين تربويّة هادفة أيضاً، وبما يناسب قدرات الطفل وحاجات لغته وثقافته، بحيث يستهويه ويحقق علاقة سعيدة بينه وبين الكتاب، وكلّ هذا وذاك علينا أن نقدمه بأسلوب فيه الخيال الفني الثريّ والسلاسة، دونما تصنّع أو تكلف أو ابتذال.

إنّ من حق الأطـفـال علينا ـ نحن الكبار ـ أن يتذوقوا الأدب لأنه هو الذي يحمي هويّة مجتمعنا، وهويّة أبنائنا من الذلّ والانكسار والإنكار، فهو الذي يرقى بأخلاقيّات الأبناء من بنين وبنات، ليشبّوا في إطار ما خلّفه الأجداد من قيم راسخة، ومبادئ ساطعة في الحياة.

يقول الكاتب السوري (نـزار نجار) في كتابه الجميل «في أدب الأطفال»: «... الأطفال أثمن ما نملك من حطام الحياة، ومن دونهم لا حياة متوالية، ولا خلود، والطفل طفل قبل أن يكون رجلاً.. فتعالوا نفهم الأطفال، ونرى الصورة الصحيحة لهم، قبل أن ندخل مملكتهم الصغيرة ـ الكبيرة، ونحطّم أمانيّهم وأحلامهم ...».

قصارى القول، فإنّ المطلوب اليوم هـو الاهـتـمـام الـزائـد بـأدب الأطـفـال، وتحديداً قضايا أدب الأطفال الجوهريّة، خاصة في بعض مراحل عمر الطفل عندما يترك القصص الساذجة البسيطة، ويبدأ بتطلعه إلى القراءات الجديّة التي تتناول قيم الحق والخير والجمال، والعدالة، وحبّ الآخر، والتعاون، وإنكار الـذات، والأمانة، كما أنه بحاجة إلى الوعي والإرادة. لقد مرّ في خاطري وأنا أستمع إلى صاحب لي، كان قد تحوّل إلى الكتابة للأطفال بأنه يحبهم، وكأنّ الآخرين يكرهون الأطفال، إن كلّ الكبار يحبّون الأطفال، وعالمهم الرائع الرحب، لذا لم أعجب أن أرى كتابات صاحبي مجرّد حنان على الطفولة، ومودّة لها بلا حدود، كأنه يتكيّف مع الطفولة ويتمتع معها.

وفـي هـذا الـصّـدد يقول الكاتب الروسي (مكسيم جوركي)، صاحب كتاب «طفولتي»: «حتى الدّجاجة تحبّ الأطفال، ولكنْ هل تعرف كيف تربّيهم؟»...

عن الكتابة للأطفال

موفق نادر

تكاد الطفولة بداهة أن تكون مقياساً لنظرة الأمم الحضاريّة نحو وجودها ومستقبلها، بها تُعرف رغبة هذه الأمة أو تلك لبناء كيانها الراسخ والبحث عن فسحة مكينة لها تحت الشمس، ومن هذا المنظار تتلبّس نفوسنا حالة من الكمد حينما نتقرّى الحالة التي تعيشها ثقافة الطفولة في عالمنا العربي؛ فمع أننا بدأنا متأخرين في الالتفات إلى هذا المنحى رحنا نتعامل معه بفجاجة مخيفة، جاعلين منه مساحة للتجريب يصول ويجول فيها صغار الكتبة انطلاقاً من فهم قاصر للطفولة بوصفها مجالاً لا يليق بكبار المبدعين؛ بل إنّ هذه النظرة الدونيّة طالت من سوّلت له نفسه باقتحام هذا العالم الرحب من الكتّاب ذوي الباع الطولى ولو على حياء!!

والحقيقة أنّ فهم الطفولة ـ في كلّ معنى ـ فهماً حضارياً ينمّ على ثقافة الإنسان العميقة، فطفولة الأشياء إنما هي بداياتها الغضّة النضيرة، وهي مشروع منفتح على مدى الوجود القادم، وهي كنه السرّ الذي سوف يأتي، وهي هيف الروح الذي سيبدأ يحبو لينهض مهما امتدّ به الزمان!! وقيل: إنّ الأدب الأكثر دفئاً هو الأقرب إلى طفولة الأمم، والأبعد عن تعقّد الحضارات، وإنّ الطفولة هي ينبوع ثرّ للمخيلة البشرية يبدأ بالنضوب كلما ازددنا ابتعاداً عنها!! ومن هنا يكون شعورنا بالتقصير نحو الطفولة العربية عالياً، وتكون الخيبة كبيرة حينما نبدأ نتفحّص ما تركه من نسميّهم أدباء الأطفال في الوطن العربي، فإذا ما استثنينا أسماء قليلة فهمث أصول اللعبة هذه، ودقّت الباب بقوّة وثقة فأنتجت نصوصاً جميلة في الكتابة الطفليّة واستحقّ هؤلاء أن يسمّوا روّاداً بجدارة، نذكر منهم ـ مثالاً لا حصراً ـ زكريا تامر وسليمان العيسى وعبد الله عبد وعادل أبو شنب.. فإنّ الركام الباقي في أيدينا يسهل التطويح به غير مأسوف عليه بين كثير من الورق المحبّر بمداد لا يساوي قيمته!!

وإنّ نظرة عجلى على ما يطفو على سطح هذا النتاج من سمات، تجعلنا نرى أولاً ذلك الوهم الكبير الذي صغناه على شكل يافطة خادعة لا نزال نسمع صداها يدقّ في أسماعنا؛ أنه علينا مواكبة العلوم والمعارف المتفجّرة من حولنا في هذا العالم المريع بقصد أن ننقل لأطفالنا بعضاً منها، وأنه آن لنا أن نقلع عن تناول تلك "الرومانسيات" التي أصبحت من ذكريات الأيام الخوالي!!

وقد يبدو مثل هذا الطرح منطقيّاً للوهلة الأولى، ولكننا حينما نكشف الغطاء عن البدائل الإبداعية التي يقدّمها أصحاب هذه الدعوة الغيورون على ثقافة أطفالنا تكون خيبة الأمل كبيرة جدّاً.

ومع اعترافنا الدائم بأن الأدب فسحة شاسعة يمكن استثمارها لضخّ المعرفة والثقافة والعلوم والمهارات، يجب ألاّ ننسى أيضاً أنّ النوايا وحدها لا تكفي لخلق وتحقيق شيء من ذلك كله، وأنّ تحديد الأهداف لا يحتّم بالضرورة أننا قادرون على الوصول إليها؛ بل إنها يمكن أن تظلّ حبراً على ورق، وتتبعثر الهتافات صيحات في وديان سحيقة!!

ومع تعدد المذاهب والمشارب والثقافات والآراء سيظلّ من ثوابت أشياء الوعي البشريّ أن الجميل الساحر منوط بالقلب، يرعشه حتى يجعله طافحاً بالسعادة أو اللوعة، وأنّ الأدب ـ مهما اختلفت أجناسه ـ سيظلّ مطالباً بأن يكون قادراً على الخلب والإرعاش بقصد تحقيق اللذة، فإذا ما عجز، فعليه أن يخرج من دارة الفنّ بقدميه!!

وأنا مع الرأي الذي يقول: إنّ كلّ أدب عظيم فيه من " الرومانسية " مقدار عظيم!! بل وأضيف أنّ الحاجة إلى ذلك النسغ اللطيف من الروح تصبح أكبر وأهمّ حينما يكون الإبداع موجّهاً للأطفال، لما لذلك من مساس وثيق بكينونة الطفولة ومتطلباتها المختلفة.

وخلوّ الأدب الطفلي من هذه العاطفيّة المحببة لا يضاهيه فجاجة ، سوى فراغه من الخيال الساحر الذي يتفق الباحثون على ضرورة وجوده في الأثر الأدبي ليسهم في حصته الكبرى من التنشئة الجمالية لذائقة الطفل، وهنا لا بدّ من التأكيد على أنّ إلحاح مناهجنا المدرسيّة على التعبير الوظيفي بوصفه منقذاً للتلميذ من العيّ وضيق الأفق ووسيلة وحيدة لتوسيع مداركه، وإهمال التعبير الإبداعي (الإلماعي) يشكّل انزياحاً كبيراً عن عالم الطفل المبهج والمحبب من غير أن يكون البديل سوى زيادة في التنفير من الكتابة في زمن صار على الورقة والقلم أن يعيشا تحدياً جائراً يمثّله التلفاز وما يشبهه من وسائل الخطاب بالصورة الفاتنة.

وبهذا وبغيره من أسباب لا يمكن حصرها، أصبح النص المكتوب للأطفال عندنا سيلاً من المواعظ والحكم المعتبرة، صيغت بكثير من الجفاف المنفّر وبأبوية خالية من الحنان المقنع نصبّها على رأس الطفل المسكين؛ بل نحاول إغراءه أن يزدردها رغماً عنه ليلتبس الأدب بالواجب المدرسيّ المقيت بدلاً من أن يكون واحة يفيء إليها الولد من عناء الدراسة وظلّها الثقيل!! وفي زحمة ما يُكتب للأطفال عندنا يدهمنا السؤال الكبير:

أهذه الكتابة للأطفال أم عنهم؟! هذا السؤال هو بيت القصيد في إشكالية الكتابة للطفل العربي بلا أية مشاغبة، ويكاد هذا الصنف من الكتابة الإبداعية أن يكون الأكثر إشكاليّة فيما يُنتج المبدعون عندنا، فإنّ نظرة متأنية في الإبداع الموجّه للأطفال يكشف عجز كثير من نماذجه عن الوصول إلى لبّ وجدان الطفل، والتعبير، من الداخل، عن مكنونات نفسه ورغباته وحاجاته، ليظلّ هذا النتاج يدور في فلك ذاته، لا يصلح أن يكون أدباً للكبار ولا هو ـ بالطبع ـ أدب أطفال!!

ويمكن في حالة تقصّي الأسباب لذلك أن نجد جملة من المعطيات والظروف تلعب دورها المهمّ، نحصي منها على سبيل المثال ما يلي:

أولاً ـ إنّ كثيراً من الكتّاب الذين انبروا للكتابة للأطفال لم يلجوا هذا الباب بسبب موهبة خاصة وجدوها في أنفسهم، أو قابليات محددة فرضت نفسها لتجعلهم يتجهون هذه الوجهة الإبداعية، بل غالباً ما كانت الرغبة في التنويع أو الاستعراض الثقافي هو السبب الأكبر لذلك، بل إنّ بعضاً من هؤلاء وجد نفسه هنا طمعاً بقيمة جائزة ماديّة أو ما يشبه ذلك.

وهنا لا ضير في أن نشير إلى بعض هذه المزايا التي يتفّق الباحثون والمنظّرون على توفّرها في كاتب الأطفال الجيّد:

ـ قبل كلّ شيء يجب أن يكون هذا المبدع مثقفاً خبيراً بصنوف الإبداع كلّها فهماً ونقداً وتذوّقاً حتى يمكنه الخطو فوق أرض مكينة، وأن يوجد له موطئ قدم فلا يجترّ تجارب الآخرين الذين مضوا!!

ـ من مستلزمات هذا الكاتب أن يمتلك الشخصية المرحة، والقابليّة الفائقة للعب والضحك حتى يستطيع أن يفتن الطفل بقدرته على تجسيم المفارقات واكتشاف المواقف الرشيقة والمدهشة، انطلاقاً من أنّ الطفل كائن ينتظر منّا أن نداعبه، فإذا أردنا أن نعلّمه ـ ولا بدّ من ذلك ـ كان علينا أن نعرف كيف ندسّ له الأفكار والمعارف والقيم محلاّة بسكّر الطرافة الفاتنة.

ـ أن يمتلك القدرة الأسلوبيّة واللغوية المعتبرة التي تؤهله للتعبير عن أعقد الأفكار بصورة تظلّ ضمن دائرة عفويّة الطفولة وتلقائيتها، حتى لا يضطرّ إلى التبسيط الممجوج الذي ينفر منه الطفل أشدّ النفور؛ لأنه يشبه تقديم طعام "معلوك" وبالمناسبة، إننا كثيراً ما نتوهّم أنّ الأطفال عاجزون عن فهم ما تبطّنه النصوص الغامضة، مع العلم أنهم أقدر من كثير من الكبار على استشفاف كوامنها ما دامت لا تتنازل عن عنصر التخييل الممتع فيها ؛ فقد يبدو غريباً أن طلاّب الصفّ السابع فهموا أنّ قصة "حكاية فرخ البطّ القبيح" لأندرسون تحكي غربة الإنسان العبقريّ في وطن منحطّ، رغم أنّ الكبار احتاجوا إلى ناقد مثل " إيفريم كارانفيلوف " حتى يطلعهم عليها

ثانياً ـ عدد كبير من هؤلاء الكتبة استسهلوا عالم الطفولة والإبداع له بصورة مقيتة، تنمّ على جهل مطبق بأنّ الكتابة الموجّهة للأطفال هي الصعبى بين الكتابات على الإطلاق، فراحوا يحبّرون صفحات رخوة تقع في مرحلة هلامية من الإبداع تفقدها هويّتها فلا تدري كيف تصنّفها ولا أين تضعها!! وأبرز سمّة فنّيّة يمكن للقارئ أن يتلمّسها هي غلبة " التوصيف " الخارجي المتخشّب لمادة العمل، ممّا ينمّ على عجز موهبة الأديب وضحالة امتلاكه لأدوات عمله، وكلاهما يعيق نجاحه في تحويل المادّة إلى قطعة أدبيّة جميلة تستقطب الطفل وتلقي به في لبّ عالمها الداخلي، فتراه يتمرّغ مرحاً فيه، مقتنعاً بما يرى ويسمع، من أشياء وأفعال تشبهه بل تتفوّق عليه طفولة ، حتى يرغب أن يتشبّه بها ويقلّدها، وبذلك يكون المبدع قد حقق ما يشاء من غير الحاجة إلى الوعظ والهتافات الصمّاء الفجّة!!

ثالثاً ـ إنّ الظروف الفنيّة والمادية التي تكتنف مسألة الكتابة للأطفال شائكة وعويصة تجعل منها أمراً غير مغرٍ إطلاقاً لمن يمتلك هذه الموهبة، ويكفي أن أضرب مثلاً ماديّاً محضاً، ومن تجربتي المتواضعة في هذا المجال:

لقد صدر لي عبر ثلاثين عاماً من الكتابة المضنية خمس مجموعات شعريّة ومجموعتان قصصيتان، وكلّها عن وزارة الثقافة واتحاد الكتّاب العرب، وكلّ ما تلقّيت عليها من مكافآت ماديّة لا تساوي ربع ما يناله مترجمٌ على كتاب من مئة صفحة.

رابعاً ـ يُلحظ غياب النظرة الجادّة عند المشتغلين بالتربية وعلومها للاهتمام بالإبداع الطفلي، وغياب النصوص المتميّزة من المناهج المقدّمة للمراحل العمرية الأولى، وغلبة ظاهرة التسرّع والارتجال في اختيار الموجود، وغياب النقدّ الجاد الذي يحفّز الكتابة الجيدة ويلغي ظاهرة الاستسهال، وجعل الكتابة للطفل مهنة من لا مهنة له.

خامساً ـ تظلّ الطامّة الكبرى أن القائمين على منابر الثقافة الطفلية ـ على قلّتها ـ يتعاملون بمنطق الأخوانيات والشللية فيما ينشرون، وغالباً ما يكون المسوّغ الأوحد للنشر هو المبلغ الضئيل الذي يناله الكاتب غير آبه بوصول نصّه للطفل وكيفية هذا الوصول!!

لكلّ ما تقدّم ولكثير غيره نجد سمة بارزة في كتابتنا الطفلية قلّما ينجو منها سوى القليل من القصص والقصائد، هي تلك الحالة من الخلط المريع بين الكتابة للطفل أو عنه؛ بل إنّ عدداً منّا لا يلمسون الفرق الجليّ بين الوضعين، فيكفي الكاتب أن يروي أحداثاً يمثلها أطفال حتى يصنّف نصّه ضمن الأدب الطفليّ، أو أن يقيم " توليفة " من بعض عناصر الطبيعة والبهائم حتى يظنّ أنه حقق فتحاً كبيراً غير مسبوق، وهناك حالات أخرى تنهض أمثلة على سقطات فنيّة لا تقلّ خطورة عمّا سبق، وكلّ النتاجات الإبداعية السابقة تجمعها صفة مشتركة ؛ أنها تجعل من الطفل محض وسيلة لترويج أفكارها على حسابه، بينما هو بما يمثّله من كينونة خاصة معتبرة يظلّ بعيداً عنها

وسأكتفي فيما يلي بعرض بعض النماذج من الكتابة الموجّهة للأطفال، منها ما لم يوفّق أصحابها رغم علوّ قاماتهم في مجالات الإبداع الأخرى، ومنها ما استطاع إثبات نفسه بما حمل من مزايا فنيّة متنوّعة ، ولا بدّ أنّ الشعر والقصّة كليهما سواء في المعاناة، فالقصة الطفليّة لا تقل عن القصيدة تعرّضاً للإصابة بالغثاثة والقصور.

الأساطير... والكتابة للأطفال

عبد اللطيف الأرناؤوط

يعتقد كثير من النقاد أن نقل الطفل وتغريبه من خلال أدب الأطفال إلى بيئة غريبة عن بيئته، يوفر له فرصة للهرب من واقعه، ويفتح له آفاق التخيل والارتحال إلى المجهول، ويعطي أدب الأطفال صبغة عالمية إنسانية، ويزعم هؤلاء أن الفن حدس فردي وليس إفرازاً اجتماعياً بالضرورة. ويذهب الفيلسوف الإيطالي «بندتو كروتشه» إلى أن الفن حدس، والحدس فردي الطابع، والفردي لا يتكرر؛ فلكل فرد طابعه الخاص وعالمه الفني الخاص به، وهذه العوالم لا تقارن فيما بينها، لكن ذلك لا يمنع من أن يكون الحدس في جوهره يرتكز - رغم طابعه الذاتي المباشر - على تجربة الفرد الاجتماعية. وهذه الحقيقة تنطبق على أدب الأطفال، كما تنطبق على أنواع الأدب والفن الأخرى.

ومن هنا تصح مقولة تعذر فصل أدب الأطفال عن التراث القومي، لأن الأدب يظل إفرازاً اجتماعياً بمقدار ما يعكس موهبة صاحبه الفردية، وأن الحديث عن تطور مضطرد عبر الزمن في الكتابة للأطفال، يصبح ضرباً من العبث، فإن القصص الشعبية التي جمعها «الأخوة جريم» أو أفاد منها «اندرسون» لا تقل روعة فنية عن قصص كتاب الأطفال المعاصرين اللاحقة، شأنها شأن اللوحات الجدارية التي أنجزها فنانون بدائيون على جدران الكهوف؛ فهي لا تقل روعة فنية عن لوحات بيكاسو، والتقدم في شتى المجالات البشرية لا يتخذ شكل خط مستقيم؛ بل يتخذ شكلاً حلزونياً متعرجاً يرافقه في بعض الفترات نكوص وانحطاط، وعالمية أدب الأطفال لا تعني تماثله المطلق في البيئات وشموليته؛ فقد يكون هذا الأدب في عصرنا متماثلاً في شروطه الفنية، لكنه في الوقت ذاته شديد التنوع والخصوصية بسبب وجود ثقافات محلية داخل كل مجتمع، ناجمة عن اختلاف شروط الحياة، وهكذا يستوعب الفن حتى في عصر العلم أثمن عناصر التراث. وكاتب الأطفال لا ينظر إلى الحاضر والمستقبل، ولا يبني تجربته على الرمل؛ بل ينظر أيضاً إلى الحاضر والمستقبل من خلال الماضي الذي عاش فيه شخصياً ومزّ به شعبه، فالكتابة للطفل تضرب بجذورها في حياة الشعب وتاريخه، وهو يكتفي بتوسيع حدود الثقافة القومية من دون أن يلغيها.

لو استعرضنا معظم أدب الأطفال في الوطن العربي اليوم، لظهر لنا أن النماذج الفنية التي يستخدمها هؤلاء الكتاب والشعراء لا تختلف في جوهرها عن النماذج الفنية التي يقدمها التراث في قصص السندباد البحري، وألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة، والقصص التراثية العالمية، ومازالت المعتقدات الشعبية كالإيمان بالجنيات والخوارق المنافية للعقل تسيطر عليها، ومازالت في جوهرها تعكس انسجام الإنسان البدائي مع الطبيعة، والكائنات التي تعيش فيها من نبات وحيوان، ومازالت موتيفات قصص الاطفال تنهل من التراث، وتستفيد من الحبكة الفنية للقصص الشعبي التراثي الذي يعكس عقلية الإنسان البدائية حتى في عصر العلم.

ومهما حاول كاتب الأطفال أن يحطم النماذج الموروثة، فإنه سيظل مرتبطاً بالصور الأساسية لفن أدب الأطفال الموروث، تلك التي تسمح أحياناً بتعديلها والخروج عليها.

إن جوهر التغريب في قصص السندباد البحري لا يختلف من جوهره في رحلة روبنسن كروزو، ومغامرات الشاطر حسن لا تختلف في جوهرها الفني عن بطولات «عقلة الإصبع». فالفن نوع من اللعب، لكن لعبة الفن شأن أي لعبة يتم تداولها، وتتحدد وفق أسس اجتماعية يختزنها التراث، وتتداولها الأجيال، ونادراً ما نبتكر ألعابنا بعيداً عن شروطها التراثية، والإنسان بصورة عامة يميل إلى التخيل والتقليد، فالطفل يتخيل أنه أمير أو أب أو ساحر أو حيوان، ويكاد يصدق في هذا التقليد أنه فعلاً أحد الذين يقلدهم، ونماذجه دائماً مستمدة من البيئة والطبيعة، المحيطة به، وهو حين يتقمص شخصية «الفهد» يدرك تماماً أنه ليس فهداً، لكنه يشعر بالخوف في الوقت ذاته - من القميص المخطط الذي عدّه فهداً، فهو يخاف ولا يخاف في آن واحد، وهو حين يعيش داخل اللعبة الفنية المتخيلة، يخلط بين الرمز والواقع، ولا ينسى ولو في لحظة واحدة الطابع المزدوج للوضع الذي هو فيه، مما يدفعنا إلى التساؤل عن سبب ميله إلى هذا اللعب الفني الذي يجمع بين الواقع والخيال..؟

يذهب علماء النفس إلى أن الطفل حين يواجه العالم، فإنه قد يقيم مطابقة بينه وبين الظروف التي يواجهها، فيخضع لها، فإذا لم يقدر عليها، وتعرّض لعوائق وصعوبات لجأ إلى عملية التمثيل، ونفي هذه العوائق بالتماس وسائل خيالية من خلال لعبه الفني، فإذا كان عاجزاً عن بلوغ رغباته نفذ إليها بالتخيل؛ كأن يمتطي بساط الريح أو يلبس طاقية الإخفاء، أو يفرك خاتم الجني فيحمله إلى حيث يريد، أو يستعين بالمارد على مقاومة الأشرار.

هذا النوع من التخيل ضروري لتوازنه النفسي؛ فموقفه هذا يشبه موقف الإنسان البدائي حين كان يواجه الطبيعة باللجوء إلى آلهة يبتدعها، ويستعين بها لإسكات غضبها وتجنب مخاطرها، ومن هنا تحتل الأساطير مكانها الطبيعي في أدب الأطفال، التي ترتد إلى نظرية الأنماط العليا أو النماذج البدائية، وتعني أن كل إنسان يرث من جنسه البشري قابلية لتوليد الصور الكونية، فرحلة السندباد وزيارة «أوليس» لبيت الموتى، ودخول يونس بطن الحوت، وإلقاء يوسف في البئر هي نمط مكرر لصورة واحدة، وهي الرحلة إلى الموت الذي يعقبه انبعاث جديد، وفي أدب الأطفال بُنى فنية ترتد دائماً إلى صورة واحدة، هي الصورة الأسطورية الأولى قبل أن يطرح عليها الانزياح والتعديل، ويربط الباحثون بين هذه الصور الأسطورية ونظرية «يونج» في التحليل النفسي التي تذهب إلى وجود طبقة من اللاوعي الجمعي؛ حيث تختزن فيها الأخيلة المكبوتة التي تشكل العقد؛ إذ يرثها الإنسان من أجداده جسدياً وعقلياً. وإن صح ذلك فإن في أعماق كل طفل إنساناً بدائياً تصدر عنه أمور كثيرة دون أن يعيها، وعنها تصدر أحلامه وتخيلاته.

وذهب «شتراوس» إلى أن أساطير الشعوب واحدة في جوهرها من حيث عناصرها الأساسية في الشرق والغرب.. من ذلك ندرك خطل الرأي الذي ينادي بإبعاد الطفل عن كل ما هو متخيل أو سحري، بحجة بناء عقله بناءً علمياً سليماً، وهو قول يتعارض مع طبيعة الطفولة؛ بل يتعارض مع حقائق العلم، فإنساننا المعاصر لم يستطع في عصر العلم نفسه أن يتجرد من تراثه الروحي والأسطوري؛ بل ذهب «مارسيل الياد» إلى أن الإنسان في عصرنا وارث أسلافه؛ وليس باستطاعته أن يلغي ماضيه مادام هو نفسه نتاجاً للماضي، وأن جملة من خرافات الإنسان ومحرماته ذات أصل سحري، ومازالت ترافقه اليوم، كالاحتفال في الأعراس والولادة، والتطير من الأشياء، والتطهر الروحي بالماء...

فإذا حرمنا الطفل التخيل كنا أكثر جوراً على إنسانيته من تركه يستسلم لأحلامه ويبتدع أساطيره، وعلى الرغم من الصلة العميقة بين أدب الأطفال والأسطورة والخرافة، فإن الأسطورة ليست أدباً، لكنها تشكل المادة الخام لهذا الأدب، وبعض الأساطير تسهم في تفسير ظواهر الكون تفسيراً رمزياً، نذكر على سبيل المثال الأسطورة التي نتداولها حول فصل الشتاء والتي اشتقَّ منها تعبير: (سعد الذابح) فهي تحاول تفسير تقلبات الطقس في فصل الشتاء، وتحدد بدقة ما يعتري الطبيعة من تحولات عبر شهور الشتاء، وتعطيها بُعداً أسطورياً. فكيف نمنع تقديمها للصغار إذا كنا نحن الكبار نعتمدها في حياتنا، وعباراتنا المتداولة؟..

وفي موروثنا من الأمثال الزراعية تجارب حياتية خصيبة تعد ثقافة جيدة للطفل منها: (قلع النعل بنيسان بيسوى السكة والفدان) و(شباط إن شبّط وإن لبط ريحة الصيف فيه) و(خبي جراتك الكبار لعمك آذار) فالموروث الشعبي والأدبي مدرسة للطفل يتعلم منه شؤون الحياة بمقدار ما يتعلم من المدرسة.

ومن المؤسف أن عناية جامعي التراث الأدبي لم تنصرف إلى تدوين قصص الأطفال، الفصيحة منها والشعبية، غير أن هذا الموروث ظل متداولاً بين الناس ينتقل من جيل إلى جيل، وترويه الجدات قرب الموقد إلى يومنا، وهو معين ثر لكاتب الأطفال، ينهل من مضامينه وأساليبه، فما أجمل أن يستهل الكاتب قصته بالاستهلال ذاته الذي يبدأ به القصاص الشعبي قصته: (كان ياما كان، يا مستمعي الكلام، من يحب منكم الرسول فليقل: عليه أشرف السلام) فيردد الأطفال من بعده (عليه أشرف السلام)، وبهذا يغرس في نفوس الإيمان الديني، أو يختتمها بقوله: (وعاشوا باللذة والنعيم.

وطيب الله عيش السامعين) وعلى صعيد الأسطورة، فإن دراسات عديدة تناولت الجانب الأسطوري في التراث العربي، أو فسرت شعر الجاهلية تفسيراً أسطورياً؛ منها دراسة الدكتور نصرة عبد الرحمن (الصورة الفنية في الشعر الجاهلي)؛ فقد استخلص من هذا الشعر نظرة الإنسان العربي إلى الكون والمصير، والرموز التي تحملها مشاهد الحيوان في القصيدة الجاهلية، ثم دراسة الدكتور علي البطل عن (الصورة في الشعر العربي)؛ حيث ردّ صور الشعر الجاهلي إلى عناصر أسطورية، والدكتور إبراهيم عبد الرحمن الذي ذهب إلى أن شعراء الجاهلية يردون الأصول الميثولوجية لأغراض فنية، والدكتور أحمد كمال زكي الذي تابع موتيفات القصيدة الجاهلية وردها إلى أصول عامة، وعلى الرغم من رؤية بعض النقاد في هذا المنهج من التفسير الأسطوري للأدب تكلفاً ومبالغة وقسراً للوقائع، فإن صلة الأدب عامة وأدب الأطفال خاصة بالتفكير الأسطوري حقيقة قائمة تثبتها قوالب قصص الأطفال ومضامينها، ذلك أن ذهنية الطفل تقترب كثيراً من ذهنية الإنسان البدائي على الصعيد الفني؛ بل ما تزال هذه الذهنية موجودة لدى الإنسان المعاصر من رواسب موروثاته اللا شعورية، فميله إلى الخوارق والأساطير يرتبط بقضاياه المصيرية ورغباته ومخاوفه، وسعيه إلى تأكيد ذاته، وامتلاك العالم من خلال السحر والخرافة واللامعقول. ويمكنني القول إن النقاد العرب لم يدرسوا ولم يفسروا أدب الأطفال تفسيراً أسطورياً، ولاردوا موتيفاته إلى أصولها

الأسطورية، ولم تنجز دراسات للأساطير التي يمكن تثميرها والاستفادة منها في تربية الطفل وتهذيبه.

لقد تم جمع بعض قصص الجان وصورة الغول في التصور الشعبي وبعض القصائد الشعبية الموروثة.. على الرغم من وفرة الأساطير الشعبية في التراث العربي فإنها لم تستغل في أدب الأطفال استغلالاً جيداً، باستثناء بعض قصص ألف ليلة وليلة مثل الشاطر حسن وعلي بابا وافتح يا سمسم... وقد لا نجد في قصص الأطفال مشاهد تراثية مثل تقاليد استسقاء المطر الشعبية أو مناظر الاحتفالات الدينية.

في أدب الأطفال لدينا أبطال تاريخيون أو أسطوريون تقليديون يمثلون أوجه الخير والشر في الحياة، ولدينا من تراثنا قصص كليلة ودمنة، وصغارنا يعرفون عن (طرزان وميكي ماوس) أكثر مما يعرفون عن عنترة وسيف بن ذي يزن وعن أبطالنا الأسطوريين، وهو نقص يمكن تداركه بالتخطيط الواعي لأدب الطفل العربي وربطه بالثقافة العربية والتراث.

إن دراسة جادة للتراث العربي الإسلامي من شأنها أن تحدد الموروثات التي يمكن أن نغني بها أدب الأطفال، فلماذا نصور لطفلنا مخاطر الغابات؛ حيث تكون مسرحاً للجنيات والعمالقة متأثرين بالبيئات الغريبة، وفي أدبنا وتراثنا وصف للصحارى، ومخاطر اجتيازها، وما فيها من حيوانات ونبات، وكيف عانى الإنسان العربي وهو يتحدى طبيعتها القاسية؟..

لماذا نغرس في أطفالنا صفة المكر والدهاء وأوجه الصراع الشرير بين الفأر ميكي وعدوه القط، بدل أن نطلعه على القيم النبيلة التي تفصح عنها قصص العرب وأخبارهم؟! إن تغريب الطفل نحو ماضيه أفضل من تغريبه في عوالم «غريبة تعكس حضارة مادية، وقيماً نفعية استهلاكية، وهي أخطر عليه وعلى مستقبله من تعاطي المخدرات؛ لعل كتابنا وأدباءنا يلتفتون إلى هذه الحقائق وهم يحاولون تقديم أدبهم للطفل العربي الذي يتلقى دون أن يحاكم أو يقرأ ما وراء السطور، وأن يكونوا أمناء للتراث العربي... وما أثقل تلك الأمانة..!

القصة الطفلية بين التقليد والتجديد

تجربة الإيطالي جاني روداري أنموذجاً

خليل البيطار

هل تعد كتابة القصة للأطفال مغامرة ممتعة؟ أم أنها فن صعب يتجنبه كبار الكتاب ويخوض بعضهم غماره بخشية؟ وما حدود التأثر بمسرودات الآخرين قدماء ومحدثين؟ وما مستوى مقاربة النقاد لهذا الفن الإشكالي؟ وهل يستطيع الكتاب المعاصرون تجديد الموضوعات والتقنيات الأسلوبية التي استخدمها سابقوهم؟

لقد تطورت أساليب القص للأطفال في القرن العشرين وتعددت الموضوعات التي عالجها، وقويت عملية التواصل بين الكاتب والقراء، وعقدت ورشات حوار وندوات نقاش في المراكز الثقافية والمدارس ومعارض الكتاب، وأسهم الإعلام المقروء والمسموع والمرئي في تقديم فوائد كبرى للمهتمين، وتعريفهم بالإصدارات الجديدة والتجارب الغنية.

ودارت سجالات كثيرة حول قضايا الاقتباس والتأثر والتقليد والسرقة في تجربة كاتب بعينه، أو في الدراسات المقارنة بين إبداعات أعلام هذا الفن الجميل، وقلما اتفق النقاد على حسم مسألة من هذه المسائل بخصوص هذا الكاتب أو ذاك النص.

وجاني روداري أحد أعلام القصة الموجهة للأطفال في إيطاليا وعلى المستوى الأوروبي أيضاً، وقد ترجمت أعماله إلى لغات عديدة، ونلمح فيها العفوية والطرافة والإدهاش والتقاط التفاصيل الصغيرة والدعابة والتكثيف والأسلوب المتين والمعرفة الدقيقة بموضوعاته.

ومن أعمال روداري التي ترجمت إلى العربية المجموعات القصصية التالية: (بنفسجة في القطب الشمالي – كان ذات مرتين أو جزيرة سان جوليو – حكايات عبر الهاتف – عشرون قصة وقصة – أساطير رومانية)، وقد عد الكاتب من المجددين في هذا الفن، ولكن مقاربة لمجموعتيه "عشرون قصة وقصة" و"أساطير رومانية" تظهر أن معظم تجارب الكتاب، بمن فيهم المجددون، قد يلجؤون إلى تقليد الأعمال الكلاسيكية في هذه المرحلة أو تلك من تجربتهم، أو في هذا النص أو ذاك من إبداعاتهم، وقد يقتصر التقليد على بعض الموضوعات أو القيم التي كثر تداولها قبلهم، أما التجديد فهو أشبه بإبحار في طقس عاصف، الشواطئ تبدو بعيدة، وتقنيات التعامل مع حركة الأمواج وتأرجح القارب تتنوع.

يتميز أسلوب روداري بالتجديد عموماً في معظم أعماله لكن بعض أقاصيصه في مجموعة "عشرون" تقع في التقليد من حيث الموضوع، أو من حيث إعلاء قيم النفع والتعاون والخير وانتصارها.

حكاية "تيريزين التي لا تنمو" تتمنى فيها الطفلة التي فقدت أباها في الحرب أن تظل صغيرة، لكنها عادت عن قرارها حين مرضت أمها وصار عليها أن تنجز أعمال البيت المتعبة، ثم تمنت أن تصبح عملاقة كي تعيد للعالم بعض عدالته، وتحققت أمنيتها، وحين لاحظت دهشة الناس من شكلها غير المألوف عادت إلى وضعها الطبيعي.

وفي حكاية "الأمير الغبي" من المجموعة نفسها، نلحظ الأمير أوريليو المحارب والوسيم، لكن الناس يلقبونه الغبي لأنه يعطي أوامر غير ملائمة ودون تفكير، ويوقع رجاله في مشكلات عويصة، وحين يلتقي أميرة صقلية اسمها روز احتفظ بها ساحر لأنها تفكر، وقد ساعد تفكير روز الأمير في حل مشكلاته، واستطاع الاثنان الانتصار على الساحر.

وفي حكاية "الملك ميدا وقاطع الطريق فيلونه" نلاحظ قدرة الملك على تحويل كل شيء يلمسه إلى ذهب، لكن هذه الميزة لا تنفع في حل مشكلات شعبه، أو في جلب السعادة له، وهو موضوع مطروق، وقرر الملك التخلي عن هذه الميزة التي جعلت قطّاع الطرق يتزايدون.

وفي حكاية "وصل العم أبيض" نرى أن الدببة السمراء لم تحتف بوصول الثلج كعادتها، إذ أن دببة القطب الشمالي لا تحتاج إلى الثلج، وقبل أن يغادر العم أبيض بنقالته، تقدمت صغار الحيوانات تطلب إعطاءها الثلج، لأنها تريد أن تلعب وتمرح، ثم تراشق الجميع بكرات الثلج، وأصابت كرة برج الأجراس، فدقت احتفاء بقدوم العم أبيض، وجعلت هديته بهيجة للجميع.

وتظهر الدعابة والتخييل في حكايتي "ناطحة سحاب في البحر" و"العم أبيض يدور حول العالم"، فالعم أبيض الجليدي ينطلق من القطب في جولة حول العالم، ويغرس وتداً للدلالة، لكنه يكتشف هشاشته وسرعة ذوبانه، وأن رحلته كانت دوراناً حول الوتد، وناطحة السحاب تغادر الميناء ليلاً، وأضواؤها تتراقص، لكنها تعود إلى موضعها عند الفجر، وتغمز بعينها للراوي، وخيال الطفل هنا يتصور العبّارة السياحية الضخمة ناطحة سحاب تغادر مكانها وتعود مثل السفن.

وحكاية "الأمير الأعمى" تتضمن مفارقة بين الطيبة والاستقامة والصدق المتمثلة في حكايات الراعي زربينو، وبين الاستبداد والعمى المركب الذي ينتجه، ويمنع صاحبه عن رؤية آثار تعسفه. فالأمير الصغير ميروزو ولد أعمى وعجز الأطباء المشهورون عن شفائه، لكن زربينو استطاع بحكاياته أن يساعد الطفل على رؤية كل شيء بوضوح، وحين حاول الأمير الصغير تغيير نهايات الحكايات السيئة، حزن زربينو، وذكر الأمير بأن الحياة فيها السار والسيء، وحري بنا تسمية الأشياء والأحداث بأسمائها، وقال له: الأشد عمى هو من لا يريد رؤية الأمور كم هي على حقيقتها ص186.

في حكاية "الخالة آدا العجوز" ترمي آدا فتافيت البسكويت للعصافير عند نافذة دار الرعاية، فتلومها النزيلات، لكن العجوز تواصل وفاءها للعصافير، وتحزن لأن أولادها المسافرين لا يزورونها أو يسألون عنها، وحين ترحل، تطرق العصافير النافذة، لكنها تحتج لأن آدا لم تفتفت لها البسكويت!

وفي حكاية "نجاح زائد اثنان"، يحزن العدد (10) أولاً للتغيرات والنقص، لكنه يسر بالزيادة عند عمليتي الجمع والضرب.

في مجموعة "أساطير رومانية" نلحظ التجديد في الأسلوب والموضوع المعاصر المطروح، وتدهش المفارقة والسخرية المريرة من أمراض المجتمع الحديث، في معظم قصص المجموعة الإحدى عشرة.

في قصة "صورة السينيور كورنيليوس" نرى صورة لمفتش الشرطة جيرونيمو الذي يدّعي الذكاء، ولمساعده المتهم بالغباء دومينيتشيس، ولمشهد ساخر من مشاهد الملاحقة بحثاً عن اللص موتي الذي ابتدع خدعاً لتضليل الشرطة أكثر مما اخترعه المخترع الإيطالي غوليمو ماركوني، ومن العبارات التي تثير الدهشة: "كي يرتاح رأسه العبقري (المفتش) يحتاج دوماً إلى مساعد غبي" ص7، واللص موتي له شريك اسمه كيس، واللفظة هنا تجانس لقب مساعد المفتش، وقد اخترع موتي آلة تصوير يمكنها أن تلتقط ما يفكر فيه الناس من صور، وحين رأى المفتش ومساعده موتي وشريكه يحملان "آلة التصوير العجيبة" ظنا أنهما تحوّلا عن اللصوصية إلى حرفة شريفة، بيد أن السرقات كثرت في المدينة بطريقة خيالية، ومنها سرقة حقيبة الثري كورنيليوس، لكن المفتش استفاد من خطيئة وقع فيها اللص كيس، وقبض على الشريكين، رغم أنه أكد لمساعده أن فكرة موتي عبقرية، وأضاف: "أغلب الناس لا يفكرون إلا بنقودهم، مع أن في مقدورهم أن يفكروا بأشياء رائعة كثيرة" والعبارة الأخيرة تخفي في ثناياها سخرية من الثراء الفاحش، الذي ينتج بدوره لصوصاً وشرطة وعاطلين عن العمل وموظفين فاسدين وأمراضاً اجتماعية كثيرة.

وفي قصة "الأسطوانة المسحورة" اخترع اللص موتي أسطوانة تدفع السامع إلى الرقص المجنون، وتمكن مع مساعده أن يسرق حقائب النساء في السوق والحفلة الراقصة، ولكن اللصين أشفقا على عجوز سرقا صرتها، وأعادا لها ما ادّخرته، ثم فطن اللص أن ذلك سيكشفهما، فأعادا الحقائب كلها إلى المكان الذي أخذت منه، وعلق مساعد المفتش جيرونيمو على الموضوع بقوله: "إنه حادث غامض، لكن المفتش كان يفكر في أنه لن يحزر ما يجري في نفس الإنسان حتى لو كان لصاً" ص32.

في حكاية "الدمية الآلية" نلحظ محاولة الأسر الثرية البحث عن الهدايا النادرة، وتبدو الدمية الآلية هنا متمردة على الأوامر على غير توقع بينما يتحول البشر في عالم التقنيات إلى دمى.

حكاية "البيضة الخضراء" و"الغرباء وبرج بيزا" تشيران إلى المخلوقات الفضائية التي تزور الأرض للسيطرة عليها، وبراعة البشر في التعامل مع الظاهرات الخارقة، ومثلها حكاية "الطائرة المجهولة".

وحكاية "الوردة والسوط" تتحدث عن بؤس الأوامر في عالم تحول فيه كل شيء إلى التحرك بأمر كما الآلة، وحكاية "جبروت العلب الفارغة" تسخر من طريقة التعامل مع النفايات في عصر الاستهلاك الجنوني، حيث النفايات تحيط بالبشر من كل جانب.

ونلمس التجديد والمعالجة الفنية والتربوية البارعة في حكاية "كارلينو، كارلو"؛ إذ تتحدث عن بؤس تعامل الكبار مع الموهبة، إلى درجة تحول الصغير الذكي إلى نسخة بائسة تشبه الكبار، فالطفل الوليد يحتج على الاسم الذي أطلقه الكبار عليه: "كارلينو" وهو اسم تدليل وتحبب، ويقترح إطلاق اسم طبيعي مثل: كارلو أو باولو أو ليوبارد وفهمت القابلة اقتراح الطفل، وتعجب أبوه السينيور ألفيو من قدرة الطفل على نقل أفكاره عن بعد، ثم يحتج الطفل على إغلاق المذياع؛ لأنه يريد سماع سوناتا شوبيرت حتى نهايتها. ويدهش الوالد من حصيلة الطفل المعرفية ومن قدرته على قراءة الكتب المغلقة! ومن معرفة الأخطاء الواردة في الكتب المدرسية، وكأنه يقلد الصحف اليسارية في هذا الأمر. وله قدرات خارقة كثيرة شخصها الطبيب، ورأى أن حاله ميؤوس منها، لأن هذه القدرات إن تطورت سيكون صاحبها قابعاً في المعتقل بعد أربعين عاماً، وسيجلب العار لأجداده. ص97. ثم وجد الطبيب حلاً هو "بيضة كولمبوس" التي تعني الحل الذكي البسيط للمسألة الصعبة، واقترح إيهام الطفل بأن الكبار يتقبلون أفكاره، وعندها يغدو الطفل طبيعياً وينسى ويعود إلى أميّته، وهكذا تحول الطفل إلى تصرفات تشبه تصرفات الأطفال العاديين التي يتقبلها الكبار، وقبل اسم كارلينو.

يتقصى روداري التغيرات التي طرأت على المجتمع الإيطالي والأوروبي، وتأثير الإعلام والتقنية والثراء الفاحش والانقسام الاجتماعي على الأجيال الجديدة؛ إذ تغيب قيم التكافل والجماعية والاستقامة والصدق وتقدير الخدمة العامة والرعاية المبكرة للمواهب، لتحل محلها أوامرية فجّة وجمود في المشاعر الإنسانية، وتسطيح للأفكار، وبلادة وسذاجة تتقبلان ما تبثه وسائل الإعلام من تحقيقات مثيرة وأخبار "موثوقة"؛ سرعان ما يتكشف زيفها بعد أن يبتلع الناس ما تضمنته من خداع وزيف.

لغة طلية وحوارات عفوية برع فيها جاني روداري، وقدم حكايات شيقة وشخصيات نجد شبيهاً لها يمشي بيننا، واستخدم بعض المبالغات ليزيد في إدراك المفارقة والتشوه، ونسج بناء قصصياً متقناً يدفع القارئ الصغير والكبير إلى التفكير.

مسرح الطفل في سورية بين الواقع والطموح

حمدي موصللي

1- يشكل الطفل بنيةً حيويةً متكاملةً يصعبُ الكشفُ عن جانبٍ من مكوناتِهِ الأساسيةِ من دونَ العودةِ إلى تلك البنيةِ الكلية.

لقد أدرك معظمُ العاملينَ في حقل التربية والتعليمِ من مربين، ومختصين في العالم أنَّ التربيةَ كعمليةٍ فاعلةٍ، وموجهةٍ نحو تنميةِ السلوكِ الفكري والحركي للإفرادِ وتعديله وتطويرِه، هي شكلٌ منسجمٌ مع العقيدةِ الفكريةِ لبلدٍ ما، وحاجاتِهِ التنمويةِ. وأنَّ هذه العملية مستمرة؛ لأن المتعلم يستحسن مؤثرات الوسط المحيط ويستجيب لها، ومن المعروف أن هذه المؤثرات عديدة ومتنوعة / مدرسة - كلمة - صحيفة - مجلة - قصة - أغنية - قصيدة - مسرح - سينما - تلفاز - حاسب..الخ /.. فمصدر المعرفة في التكوين التربوي كبير ومتنوع، وعملية تعلم المفاهيم والمهارات وتنميتها يتعاظم يوماً بعد يوم، في ظل تكامل تربوي شامل يحمل كل الأسباب الناجعة لتطوره واستمراره. فإذا كانت الكلمة، وهي إحدى المؤثرات الهامة في العملية التربوية مصدرها الأسرة أو معلم المدرسة.. الخ.. فالوسط التربوي هنا تجاوز حدود المدرسة أو الأسرة؛ أي حدود المكان، وزمن التعلم أصبح أكبر مما تحدده مثلاً الخطة المدرسية من حصص دراسية خلال سنة /النظام الدراسي /، ولم يعد مفاجأة أن نقول إن المسرح المدرسي / التعليمي / وكذلك الشاشة التلفزيونية التعليمية والحاسب / الكمبيوتر / وغيرها من وسائل التأثير والتعليم أخذ يحتل موقعاً أساسياً فاعلاً في عملية التكامل التربوي.

2 - الطفل والمسرح في سورية:..المسرح فنٌ شرطيٌ أولاً، ولأنهُ يتطلبّ الإلمامَ بتخصصاتٍ عـدةٍ، أدبيةٍ وعلميةٍ وتربويةٍ وفنيةٍ وبيولوجية. فهو يعتمدُ على مجموعةٍ من الوسائل التعبيريةِ التي يشتركُ فيها السمعي بالبصري بالحركي بالسيكولوجي بالحدسي؛ أي انه لا يعتمد على اللغة الأبجديةِ كما هو حال أغلب الأجناس الأدبية كالرواية والشعر والقصة. كما أنه لا يعتمد على الصورة التعبيرية أو التشكيل فقط كما هو حال الفنون التشكيلية، ولا يعتمد على اللغة المنطوقة، وإنما يستمد شمولية خطابه من هذا التعدد اللغوي بمختلف فصائله التعبيرية.

-ثانياً :هو فن شرطي لأنه يتعامل مع العلامات؛ إذ يعدّ كل ما فوق خشبة المسرح علامة دالة. وهذا يعني أن الطفل مطالب في هذه الحالة بتفكيك العلامة، وهنا تكمن مهمة المبدع المسرحي التربويةُ والجماليةُ، لأنه مطالب بتهيئة الطفل لفك رموز العلامة، وتحديد وظيفتها داخل السياق الخاص للعرض المسرحي.

-ثالثًا.. هو فن شرطي لأنه إلى جانب كل ما ذكرنا، لابد من أن يكون المبدع المسرحي مؤهلاً معرفياً وتربوياً وعلمياً ليتعامل مع الطفل..)؛ أي ينبغي على المبدع المسرحي أن يتواصل مع البرامج التعليمية الجديدة وفق أحدث ما توصلت إليه، وخاصة تلك التي تخص الجانب الاجتماعي، والتربوي والاقتصادي وهذا يقوي من شخصية الطفل ونوعية نموه ويعززهما..)

- مسرح الطفل في سورية حديث النشأة شأن مبدعات أدب الأطفال الأخرى؛ فقد كان حتى مطلع السبعينيات يتبع للمؤسسة التربوية التعليمية، ولم يحظَ باهتمام الأدباء إلا في وقت متأخر، وعلى الرغم من مرور أكثر من عقدين من الزمن لم يلقَ مسرح الطفل في سورية حتى الآن الاهتمام الكافي، والعناية التي يجب أن يلقاها، مع أن وزارة الثقافة على رغم من قلة عروض مسرحها الطفلي وعروض مسرح عرائسها الخاص بالأطفال دون السادسة، ورغم انشغالها بعثرات مسرح الكبار، ومعها منظمة طلائع البعث، أسستا لهذا المسرح، وقدمتا الإمكانات المتاحة لهما؛ إلا أن هذا لم ينتج مسرحاً يتمتع بكل مقومات مسرح الطفل على مستوى العرض والنص، ومستويات أخرى../ الممثل - المتلقي - المكان والبيئة - الزمان - الموسيقى - الغناء - الرقص - الديكور - الملابس/.. وأيضاً حاول القطاع الخاص في سورية ركوب موجة الاهتمام بمسرح الطفل بغية تحقيق أكبر ربح على حسابه، فقدم جملة من العروض الهابطة في صالات الفنادق الكبرى وقاعاتها، وفي أماكن لا تصلح أصلاً لإقامة مثل هذه العروض المخصصة، ومع هذا عزف هذا القطاع عن خوض هذه التجربة ثانية لأنه غير مؤهل له. وإذا أردنا الحديث عن مسرح الطفل في سورية فلا بد من الحديث عن دور هذا المسرح فعلياً في العملية التربوية، والتعليمية والترفيهية، والمساهمة الفعلية في حياة هذا الطفل كأحد أهم وسائل التأثير، والإسهام في تنمية شخصية الطفل وتقويم سلوكه، والاستفادة من الخبرات العلمية والاجتماعية والتاريخية، وبالتالي إذا اتفقنا على أن مسرح الطفل هو نشاط إبداعي فعّالٌ جيد للتربية السليمة، ومساهم في خلق جيل مثقف واع مؤمن بشرعية انتمائه لوطنه، ولقوميته، وللإنسانية جمعاء، نكون قد حددنا الخطوط العريضة للسير بمسرح الطفل، والارتقاء به، وثمة من يسأل هل من تعريف محدد لمسرح الطفل ؟ وما هي الإشكاليات التي يعاني منها ؟.. قبل الإجابة لابد من تحديد جوهر الاختلاف الرئيسي بين مسرح الكبار، ومسرح الطفولة.. يقول: يختلف مسرح الأطفال عن مسرح الكبار أو الراشدين، وتتجلى في قضية مسرح الأطفال معضلة التربية والفن أكثر من بقية مبدعات أدب الأطفال الأخرى كالقصة والشعر، فقد عومل مسرح الأطفال إلى وقت قريب على أنه المسرح المدرسي، أو استخدام المسرح لغايات الدرس أو التعليم أو التربية، ولم يعترف بانتماء مسرح الطفل إلى الفن أو الأدب إلا متأخراً، فقد غاب هذا المسرح طويلاً عن الأدب، وعدّ بالنسبة للمؤسسة التربوية مادة بالنسبة للمناشط الاحتفالية، ورافداً للمنهاج المدرسي، وإغفالاً لطبيعة الممارسة المسرحية الطفلية التي تتسع لتشمل مشاركة الطفل نفسه في الفرجة والمشهدية، وتضيق لتقارب مفهوم الخطاب المسرحي للراشدين »- هنا يجب التمييز بين شكلين من مسرح الطفولة :

الأول : هو شكل تربوي تثقيفي يشارك في تحقيقه الطفل فقط؛ أي استثمار الطاقة الإبداعية من جهد حركي مفعم بالتعبيرية، والتحريض لإدراك العالم المحيط، الذي يسهم في تنمية الشخصية وتعزيز الثقافة الذاتية، وبتنامي الذوق والشعور بالصحة النفسية والانضباط والبهجة والفرح وتقويم السلوك وحب التعاون لدى الطفل وهذا يعرف(بالدراما الخلاقة).. والسبيل لتحقيقها مسرحة القصص، والحكايات والأشعار هذه التي تعمل على تفجير الكامن من مقدرة حركية وتعبيرية في الأحاسيس والتخيل واللغة والوعي لدى الطفل.

الثاني : هو مسرح موجه إلى الأطفال، وهو متعدد الأشكال قد يشارك فيه الطفل مع الكبار أو لا يشارك، ويستند إلى اعتبارات مخاطبة الطفل الفنية والتربوية كمسرح الكبار للصغار والمسرح الغنائي والاستعراضي والتسجيلي، ويمتد ليشمل مسرح العرائس وخيال الظل. بهذا نكون قد ميزنا بين مفهومي مسرح الأطفال ومسرح الكبار، وكذلك بين مسرح الأطفال ومحاولات تبسيطه في المسرح المدرسي.. فهو أبعد من مجرد وسيلة تربوية للإيضاح أو التعليم أو الإرشاد أو النوعية، وهي تسميات متشابهة لممارسة مسرحية طفلية حصرت مسرح الأطفال في مفهوم المسرح المدرسي. نعود للإجابة عن السؤال السابق : هل من تعريف محدد لمسرح الطفل ؟ وما هي الإشكاليات التي يعاني منها؟.

أولاً- لا يوجد جواب جاهز له طبيعة المصطلح المتعارف عليه، وبالتالي لا يوجد تعريف محدد له، مثلما لا يوجد تعريف محدد للطفولة.. / نحن نعي تماماً أن ثمة مراحل طفلية يمكن تقسيمها مدرسياً لأجل تسهيل دراستها، لكنها في الواقع العملي غير موجودة../ يمكن أن يحضر جد في الستين مع حفيده في العاشرة من عمره عرضاً مسرحياً للأطفال، ويستمتع الجد أكثر مما يستمتع الحفيد.. فالجد هنا يستعيد ذاكرته الشفوية عن براءة طفولته، بينما الحفيد لا يستطيع الاستمتاع أكثر من تجربة حياته الغضة المحدودة، ومع ذلك هناك تعاريف لا تحدد بدقة مفهوم مسرح الطفل منها:.. مسرح الطفل هو المكان الذي يجب أن يقصده الطفل بشكل دائم ومخطط من أجل أن يحصل على المتعة والفائدة، بأن يرى شخصيات حكاياته بعينيه، ويشعر بمشاعرها، ويستخلص الحكمة والدروس من سلوكها وأفعالها والعبرة من الحكاية التي يراها، وهو المسرح الذي يقدم له ما يحتاج إليه من معلومات قد تفيده عند حاجته لها..... هو مسرح النبل والنقاء يحرك إحساس والطفل وخياله للتقدم نحو المستقبل بشكل واضح حسن. هناك تعاريف كثيرة، ولكن وجدت أن تعريف أليس رودنبرغ).. وهي رائدة مسرح برلين للطفل إبان الحرب الثانية؛ إذ تقول: إن هذا المسرح يقدم للأطفال ما يلائم أعمارهم، ويدخل البهجة في قلوبهم، ويغذي فيهم في الوقت نفسه روح البطولة والشهامة، وحب الخير والجمال. هذا التعريف البسيط يحمل في طياته خصوصية مسرح الطفل المعقدة والصعبة، التي من دونها لا يمكن التواصل مع الطفل.

إشكاليات مسرح الطفل في سورية :

على الرغم من مرور أكثر من عقدين من الزمن على البدايات الأولى لمسرح الطفل في سورية؛ إلا أنه مازال يحبو على أرض وعرة، لم يستطع سالكوها تسهيلها بوعي طبيعة هذا الفن الجماعي الخلاق. يعاني هذا المسرح من إشكاليات عديدة، تكاد تكون أقرب إلى إشكاليات مسرح الكبار في سورية، الذي يعاني من أزمة لا تفصله عن أزمة المسرح العربي ككل../ أزمات على مستوى النص وقضاياه من تأليف وإعداد، واقتباس وتناص ولغة وحوار، وأخرى على مستوى العرض إخراجًا، وإعداد الممثل، والتقنيات والعمل عليها - الديكور - أماكن العرض وتجهيزاتها - جهة الإشراف والدعم المادي..الخ - سوف أكتفي هنا بدراسة بعض أزمة النص والعرض. على أن أتوسع مستقبلاً بالإحاطة بجميع جوانب الأزمة التي تعصف بمسرح الطفل

- أزمة النص : هل تكمن في ندرة النصوص التي تعي أن الأطفال هم الذين يصنعون مسرحهم على الرغم من أن الكبار يكتبونه ؟.. أم أن المواضيع التي تتضمنها النصوص غير قادرة على الولوج إلى عالمهم لجهلهم بوعي طبيعة هذا الفن الجماعي الخلاق ؟. أغلب النصوص المسرحية المكتوبة للطفل تخفي عيوبها الدرامية والمعرفية للجهل بعلوم الدراما المكونة أصلاً للنص من لغة وحوار وشخصيات، ومكان وزمان ونتيجة. وبالتالي وفرة مثل هذه النصوص تؤكد ندرة النص الناجز والمكتمل الذي يعي عالم الطفل تربوياً ومعرفياً وقيماً. والجهل بالكتابة الدرامية.. / ينتج نصاً فيه الكثير من اللغة الفائضة عن الحاجة والقليل من الدراما، ويبدأ ذلك عادة بتبسيط الحكاية، وتسطيح الشخصيات، وتحييد الصراع، و إبراز الرؤى أحادية الجانب للخير والشر../

- أزمة العرض :.إن وصاية الكبار على مسرح الطفل وعروضه أكثر خطراً في الواقع السوري الراهن من ندرة النصوص المسرحية. ذلك أن هذه الوصاية سرعان ما تغدو فكرية، تترجم مسرح الطفل على أنه وسيلة لنقل المعارف والقيم خلال العرض، وضمن هذه الوسيلة لا أهمية لرأي الأطفال ومشاركتهم ومراقبتهم أثناء العرض، وملاحقتهم بعده لمعرفة أثره فيهم. وشيئاً فشيئاً يغدو هذا المسرح نسخة ثانية عن المدرسة، ومنبراً لنقل أفكار الكبار إلى الأطفال، سواء كان هذا الكبير مؤلف المسرحية أم مخرجها أم الجهة المشرفة على الاثنين معاً) هنا ينبغي فعل ما يلي :

1- التهيؤ حاجة ضرورية تربوية سيكولوجية اجتماعية فنية تعني بالضرورة إشباع حاجات الطفل النفسية، ويجب تحقيقها في النص وفي العرض.

2- إذا كانت الغاية من العرض المسرحي تدريب الطفل على بعض التقنيات المركبة التي تخاطب الذاكرة الذهنية بغرض تنمية المهارات العقلية عند الطفل؛ فإن العرض المسرحي ينبغي أن ينصب على تحقيق الفرجة (المتعة)، وذلك بتوفير أسباب المرح والانبساط لتفكيك الرتابة التي قد تسببها تلك التقنيات ذات الطابع التركيبي.. / لقد أبانت التجارب أن المشاهد المضحكة أو المثيرة هي أكثر المشاهد إغراء بالنسبة إلى الأطفال، ولكن الضحك هنا لا يعني التسلية المجانية؛ لأن الضحك من أهم الوسائل التربوية لتنمية مدارك الطفل. إذ كلما كانت أسباب الضحك معقولة وهادفة. كلما كان الطفل أكثر قرباً والتصاقاً بالمسرح. لهذا ينصح بأن يكثر المخرج من شخصيات الحيوانات والأقنعة، وما إلى ذلك مما يقربه من الطبيعة ومخلوقاتها العجيبة، والقصد من ذلك خلق الفضول والإثارة عند الطفل؛ إذ كلما كثر الفضول كلما اشتغل الذهن والإحساس بنشاط أكثر قوة../ وهنا يتضافر عمل الموسيقى بتنوع إيقاعاتها الحركية مع دلالات الإنارة وألوانها الجميلة، ومع التمثيل والديكور واللغة ليشكلوا عرضاً سمعياً بصرياً حركياً يسهم في تربية الذوق الجمالي لدى الطفل وتنميته، وتكريس ما هو نبيل في ذهنه. ويجب الملاحظة هنا أنّ اللغة المنطوقة في العرض المسرحي ينبغي أن تكون سليمة، وبسيطة وسهلة التلقي، وخالية من عيوب الأخطاء اللغوية والنحوية، وأن يتقنها الممثل بشكل جيد، وكذلك التمثيل ينبغي أن يكون بسيط الأداء بعيداً عن التكلف قريباً من عالم الطفل؛ لأن الغاية أولاً وأخيراً من العرض المسرحي تكمن في تحضير الطفل ليكون رجل الغد.

- أخيراً رغم أن الطريق التي يسلكها مسرح الأطفال في سورية وعرة، فهي مازالت مفتوحة، ويمكن أن يركن المرء إليها، مادامت هناك فئة من المسرحيين تذللها، وتنظر إلى عملها بجدية ووعي ورغبة في الاقتراب من عالم الأطفال.

مراجع البحث:
1 – عبد الله أبو هيف في ملف المسرح الصادر عن مجلة الموقف الأدبي للعددين 245 – 246 - /1991.
2 494 - منشورات وزارة الثقافة السورية عام2001/ ص 86 - 87 - 88 /
3 - مجلة الحياة المسرحية / العدد 41 عام 1994/.. مسرح الأطفال بين الواقع والطموح / سمير سلمون /..
4- موسى كولدبرغ - مسرح الأطفال فلسفة ومنهج - ترجمة صفاء رومانى - وزارة الثقافة 1991
5 - أفكار حول الكتابة المسرحية للأطفال - محمد بري العواني / مجلة الحياة المسرحية العدد 49 عام 2001 / إصدار وزارة الثقافة السورية..
6 - د. سمر روحي الفيصل / مسرح الطفل في سوريا / مجلة الموقف الأبي السورية لعام 1986 / العددان / 178 - 179 / شباط (فبراير) وآذار (مارس).
7- د. مصطفى رمضاني - كلية المتلقي والخطاب في مسرح الطفل - مجلة الموقف الأدبي / العددان 284/283 / تشرين ثاني - كانون الأول.

كتابة الحكاية: جاني روداري أنموذجاً

عياد عيد

تختلف الأزمنة.وتتراكم, وتظل الحكاية رفيقة البشر. من أساطير بلاد ما بين النهرين وسير الهلاليين والعبسيين وأساطير الرومان والإغريق، إلى كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة, إلى قصص السفر برلك وحكايات المطاريد, إلى حكايات هوفمان وهاوف والأخوة غريم وأندرسن. كانت الوسيلة التي حكوا بها عن مغامرات الصيد وعن الغزوات والحروب, ورافقتهم الحكاية في رحلاتهم, وكانت خير ما يزجون به الوقت, فيمضي سريعًا, وترتوي المخيلة وتسر النفوس, وتختلط مشاعر الفرح والفخر والغضب والحزن والشفقة والاستحسان والاستنكار. حكوها في أمسيات الشتاء في القرى, وفي المقاهي في المدن. حكاها الأجداد لأحفادهم, وحكاها الواعظون في مواعظهم, وها نحن نتخطى عتبة القرن الحادي والعشرين وما زالت للحكاية مكانتها وسحرها وأهميتها, وإن تعددت أشكال روايتها وأساليب تلقيها.

أودعت الشعوب الحكاياتِ خلاصة تجاربها وحملتها آلامها وأمنياتها, ولخصت فيها كل ما لديها من إرث ثقافي وأخلاقي, وقد يكون من المفيد في موقف آخر أن نتناول بالتفصيل تلونات هذا النوع الأدبي ومسيرة تطوره, لكننا, ولكي لا نغوص أكثر في التعميمات الإيجابية, سنكتفي بأن نذكر أن هذا الفن كغيره من الفنون هو فن بيد من يستخدمه, ففيه ما يمجد الشجاعة والعلم والعمل, ويحث على فعل الخير والتضحية وإنكار الذات, ويدعو أصحاب الملك إلى العدل والرحمة, ويحث المظلومين على الدفاع عن أنفسهم وعن حقوقهم وأوطانهم, وفيه أيضًا ما يزين المظالم فيمجد المكر ويعد البطش بطولة والخداع شطارة, ويضلل الناس بالصور الزاهية البراقة.

عرفت البشرية كتابًا كثيرين أبدعوا في هذا الفن, ومنهم القاص الإيطالي الطيب جاني روداري.

يعرف العالم العربي هذا الكاتب من أعماله المترجمة: فقد ترجمت له السيدة دلال حاتم رئيسة تحرير مجلة أسامة سابقا قصة " الفطيرة الطائرة ", كما ترجم له الأديب ميخائيل عيد من سلسلة حكايات على الهاتف المجموعتين القصصيتين «بنفسجة في القطب الشمالي», و«صياد سمك من شيفالو» ومختارات قصصية نشرت في كتاب «المتمرد هوك» عن وزارة الثقافة. كما كان لي شرف ترجمة رواياته الموجهة للفتيان«كوكب شجيرات رأس السنة» و«مغامرات تشيبوللينو» و«رحلة السهم الأزرق» ومجموعة «أساطير رومانية» صدرت جميعها عن وزارة الثقافة, وحكايات أخرى متفرقة نشرت في مجلة أسامة, ونشرت حكاية «الأمير بوظة» ضمن سلسلة كتاب أسامة الشهري, وعن دار الحصاد صدرت للمؤلف سلسلة «حكايات على الهاتف» كاملة في كتيبات أنيقة ترجمها الأستاذ حسن خضر.

كان إنسانًا متواضعًا تواضعًا مدهشًا. لا بل كان خجولاً على الرغم من شهرته العالمية ككاتب قاص حائز على أرفع جائزة في أدب الأطفال: جائزة هانس كريستيان أندرسن العالمية.

كان ينظر إلى شهرته نظرة هادئة, فلا تثير كلمات المديح فيه سوى ابتسامة ارتباك. ومع أنه كان منضبطًا في الإفصاح عن مشاعره، فان حديثه في مجالس الأصدقاء كان ينساب بحرية مثيرًا الإعجاب لغزارة ما فيه من أفكار أصيلة, ولدقة ملحوظاته, ولخياله الذي لا حدود له.

لكنه كان يمتلك روح مناضل. له شأن في كل الأمور. لقد سعى إلى أن يكون مواطنًا حقيقيًا في بلاده, ومشاركًا في معركة الأفكار. لذلك لم يكن من قبيل المصادفة أنه لم يتخل عن يراع الكاتب طوال حياته الإبداعية كلها، وهو يعمل صحافيًا في المنشورات الإيطالية التقدمية.

انضم جاني روداري إلى صفوف المقاومة منذ كان فتيـًا, وراح, والسلاح في يده, يقاتل في سبيل حرية الشعب الإيطالي.

وبعد انتهاء الحرب لم يبخل على نضاله بجهد أو بوقت. عاش حياة المحرومين، وأحس بمعاناة الفقراء، وساعد العمال في الدفاع عن حقهم في العمل, والفلاحين والمزارعين في نضالهم من أجل الأرض, وشارك في مظاهرات الاحتجاج, وخطب من على المنابر ضد إشعال حرب جديدة.

كان جاني روداري يقول, وفي أكثر من مناسبة: – على الصحافي, قبل كل شيء, أن يحب الناس, ينبغي أن تثير حياتهم اهتمامه, إنه مجبر على أن يفهم مشكلاتهم. من لا يحب الناس لا يقدر على أن يكون صحافيًا.

صار جاني روداري كاتبًا للأطفال, كما يعترف هو نفسه, مصادفة تقريبًا, عن غير قصد. يتذكر فيقول: – مرة كلفني رئيس تحرير الصحيفة بأن أهتم بالأشعار والحكايات من أجل أطفال الكادحين الإيطاليين, قراء <الأونيتا > (الوحدة). مضت بضعة أعوام منذ كففت عن التدريس, لكنني حين أمسك بالقلم, أتخيل عيون تلاميذي وهي مسلطة نحوي, وأنهم ينتظرون مني حكاية أو قصة مرحة... هكذا بدأت أكتب للصغار.

كان ذاك اكتشافًا لجاني روداري أيضاً, الذي لم يتخيل قبل التاسعة والعشرين من عمره أن كتب الأطفال التي كتبها ستقرأ من قبل نصف البشرية على أقل تقدير. وكان ذلك جزءًا من نضاله. لقد اضطر إلى التصدي لأدب "الكراميلا" المعسول الموجّه للأطفال, والذي يكتب عن فقاعات الصابون والورود والملائكة. كان أطفال الإيطاليين يحتاجون إلى «الكتاب – الخبز», الذي يتكلم على كل ما يحيط بهم – على الكدح, والدراسة, وعلى النضال الاجتماعي, وعلى حياة أطفال الفقراء الحقيقية.

ثمة على الأرض بساتين. ومروج.
آلاف الرذات تنثرها النوافير.
وفي القبو المظلم على الجدار دوما يسيل
الماء بخط بطيء.
يلمس الصبي الجدار الرطب,
ويمص إصبعه المبلل.

لقد احتاج أطفال الكادحين حقا إلى قصائد جاني روداري, مثل «تشيتشو», «ما رائحة المهن؟», «ما لون المهن؟», «الخادمة», «عامل الجلخ», «الحجّار المسن», «الصبي النابولياني» وغيرها كثير, كما يحتاجون إلى الخبز.

رأيت: فصيلٌ عند سور المعمل
أردى الناس
قتلى
بلا رحمة.

نشر جاني روداري أشعاره.وحكاياته في الصحف التقدمية, فلم يستطع أن يتحدث مع قرائه الفتيان كما كانت تقضي آنذاك قواعد أدب الأطفال المخصص للأغنياء. لقد كان أول كاتب أطفال في إيطاليا سعى جهده إلى إن يعكس أفكار الشغيلة على نحو شاعري.

يقول روداري: – إن موقعي في الحركة العمالية أن أكون في خدمة الفتية. قالوا إنهم في حاجة إلى كاتب أطفال, فوجدتني مجبرًا على أن أصيره.

أحب روداري الأطفال حبًا جمًا. أما هم إذ أحسوا بذلك, فانجذبوا إليه كما ينجذبون إلى ساحر أسطوري، وإن كان بلا لحية شيباء طويلة, وبلا قبعة مدببة الذروة أو رداء غطته النجوم.

كان هو نفسه طفلاً كبيراً, احتفظ إلى الأبد بملامح الطفولة. فكان يطيب له أن يلعب مع الصغار ناسيًا ما بلغ من عمر, وأن ينغمس في هذه التسليات بشغف صادق.

حين صار مدرسًا للصفوف الابتدائية، أحب رواية القصص المسلية المختلفة للصغار, وكان التعلم ممتعًا للتلاميذ على نحو لا يوصف, لأن الدخول إلى الواقع, كما يرى روداري «ممكن من الباب الرئيسي, لكن يمكن التسلل إليه من النافذة, وهذا مسل للأطفال أكثر بكثير... ما دام هذا أمتع فهذا معناه أنه أكثر فائدة».

أقحم المعلم المرح تلاميذه في اللعبة ساعيًا إلى أن يثير خيالهم. لقد لعب بالكلمات, لأن أية كلمة, حتى المعتادة – المطموسة, يمكن أن تشارك في تعبير الطفل عن نفسه, وأن تحرضه على الإبداع. يتذكر روداري قائلاً: «– كنت أدعو إلى السبورة تلميذين, فأطلب من أحدهما أن يكتب كلمة على الوجه البيّن من السبورة, وأطلب من الآخر أن يفعل ذلك على الوجه المعاكس.. ولهذا الطقس التحضيري غير المطول مغزى محدد. كان يشكل جوًا من الترقب المتوتر, المفاجئ. إذا كتب الطفل على مرأى من الجميع كلمة [كلب] فإنها تصير كلمة خاصة, جاهزة لأن تكون في موقف غير عادي شريكة في حدث ما غير بيّن. ما عاد [الكلب] دابة على أربع وحسب, إنه بطل مغامرة, شخصية مبتكرة, واقعة تمامًا تحت تصرفنا. ندير السبورة ونكتشف, مثلاً, كلمة [خزانة]. كان الأطفال يستقبلونها بانفجار من الضحك... إذا أخذنا كلمة [خزانة]

القاص الإيطالي جاني روداري

منفردة فإنها لا تجبر لا على الضحك ولا على البكاء. إنها خمولة, لا لون لها. لكن [خزانة] مقرونة بـ [كلب] – هذا شان آخر. إنه اكتشاف, اختراع, دافع».

ويبدأ الفتيان مع مدرسهم يبتكرون حكاية. وماذا سيحدث لو أجلسنا الكلب في الخزانة؟ لنفترض أن دكتورًا ما – لنسمه بوليفيمو – فتح الخزانة حين عاد إلى المنزل كي يخرج منها سترته، وإذا في الخزانة كلب... يهز الكلب ذيله مرحبًا ويمد برثنه بلطف, لكنه لا يرغب في الخروج من الخزانة. يذهب الدكتور إلى الحمّام فيكتشف هناك في الخزانة الصغيرة كلبًا آخر. الكلب الثالث يقبع في خزانة المطبخ وسط القدور, والرابع في جلاية الصحون وثمة آخر نصف متجمد في البراد. في مقدور بوليفيمو أن يطرد الكلاب كلها إلى الشارع. وينتهي الأمر. لكن قلبه يدله على حل آخر. يتجه الدكتور إلى حانوت اللحام ويشتري عشرة كيلو غرامات من اللحم كي يطعم ضيوفه. وصار منذ ذلك الحين يأخذ كل يوم المقدار نفسه من اللحم. لم يكن لهذا الأمر أن ينقضي من غير أن يلحظه الآخرون. سرت الشائعات والأقاويل: ألا يخفي الدكتور جواسيس يبحثون عن الأسرار الذرية؟ صار بوليفيمو يفقد زبائنه. ووصلت الوشايات عنه إلى الشرطة. فتشوا شقته, وهنا فقط اتضح أن بوليفيمو احتمل هذه المتاعب كلها بسبب من حبه للكلاب.

هاكم أي حكاية نتجت عن جمع كلمتين مكتوبتين لا على التعيين. طبعًا ما هذا سوى مادة أولية, وتبقى مسألة معالجتها أدبيًا مهمة الكاتب المحترف.

رأى روداري, مثل أغلب الفنانين الحقيقيين, الطبيعة والناس بعيني طفل, محافظًا على النقاء والبراءة اللذين يستقبل بهما الأطفال العالم. بيد أنه لم ينحط قط إلى المفاهيم الطفولية المبتذلة. لقد تحدث إلى الفتية كما يتحدث إلى الكبار, مؤكدًا أن الأطفال يفهمون أكثر كثيرًا مما نتوقع. وحتى إن لم يفهموا شيئًا فإنهم يمتصونه في ذاتهم.

يسأل الأطفال الـ «لماذا» المرحة كثيرة الحركة, التي ابتكرها الكاتب: «لماذا ليس للماء لون؟» فتجيبهم: «يسمح الماء بنفاذ أشعة الضوء كلها ولا يمتصها, لهذا ليس له لونه الخاص». يقول الماء: «لا أبالي بالسياسة. لست أحمر ولا أسود». لكن يتبين فيما بعد أن مقداراً قليلاً من المسحوق كاف لكي يجعله أصفر أو أخضر أو بنيًا – أو أي لون تشاء. إنه كائن لا شخصية له.

يخيل في كل كتاب من كتب روداري أن المواقف التي لا تصدق كلها, وما أوفرها في حكاياته, تنضح بأفكار عميقة تدخل وعي الفتية دخولاً حرًا ليس فيه عنت ومليئًا بالمداعبة. يقول مفسرًا لماذا كتب حكاية كبيرة عن جيلسومينو: «يبدو لي أن ألد أعداء البشرية هم المنافقون. ثمة على وجه الأرض مئات الآلاف من المنافقين. المنافق هو الصحافي الذي يكتب [حرية], ويفكر في أثناء ذلك بالحرية التي يستغل بها الرأسماليون العمال, والتي يمص بها الامبرياليون دماء الشعوب المستعمرة. المنافق هو ذاك

الـذي يقول [سلام]، أما في الواقع فهو مناصر للحرب... أؤمن بقوة الحقيقة... الحقيقة التي تشبه صوت المغني – ذلك الصوت الذي يهتز له زجاج النوافذ».

كان لجيلسومينو مثل هذا الصوت ذي القوة المذهلة, وكانت أغنياته تفتـح عيـون الناس وتريهم الحقيقة.

ونقرأ في روايـة «كوكب شجيرات رأس السنة» دعوته إلى توحيـد الحضارات التي يمكن أن توجد في الكون. إنه يدعو الأطفال إلى التفكير في الجدوى من كلمة «قتل» أو «سرق», وغير ذلك من الكلمات التي باتت جزء لا يتجزأ من قاموسنا اليومي. لكن لم يفته أن الحاجة إلـى مثـل هذه الكلمات تنبع أساسًا من عدم المساواة. والتمييز في توزيع الخيرات التي تكفي الجميع.

في حكاية جاني روداري الأخرى – «قالب حلوى في السماء» – وعلى الرغم من مجرى الأحداث الخيالي – تتحـول القنبلة الذرية عند التفجير التجريبي إلى قالب حلوى كبير يتدلى فوق روما – نجده يتحدث عن ضرورة أن يناضل سكان الأرض جميعهم, حتى الأطفال منهم, من أجل السلام ضد الحرب النووية, وحينئذ ستسخر الإمكانيات التي تهدر الآن كلها هدرًا لا معنى له على التسلح, من أجل صناعة قوالب حلوى رائعة, وهي تكفي كل قاطني كوكبنا, وكم سيبقى منها أيضًا!..

وفي «رحلة السهم الأزرق» ترفض الألعاب أن ينقضي عيد رأس السنة من غير أن يحصل الطفل فرانشيسكو على لعبة القطار المسمى «السهم الأزرق», فأمه لا تملك نقودًا, حتى أنها لم تستطع تسديد ما بذمتها من لعبة السنة الماضية. تتشاور الألعاب فيما بينها وتقرر أن تبدأ رحلة البحث عن فرانشيسكو. تفر من واجهة محل الساحرة, وحين يستولي زعيم الهنود الحمر, وهو أحد الفارين, على لائحـة بأسماء الأطفال الذين لن يستلموا ألعابًا هذه السنة يصاب بالذهول: كان يظن أن في الدنيا فرانشيسكو واحـد, أو اثنين على الأكثر, واحد فقير والآخر غني, لكن الفرانشيسكوات كثر.

روايته الخيالية عن الصبي – البصلة الفطن والمرح «مغامرات تشيبوللينو», التـي نقلـت إلى عشرات اللغات في العالم, هي حقًا أشهر الحكايات التي كتبها جاني روداري.

لقد نقل روداري إلى عالم الخيال الرائع, وباعترافه الشخصي, كتاب الأطفال الكلاسيكـي«بينوكيو أو مغامرة الدمية الخشبية» لكارلو كوللـودي, الذي قرأه منذ كان طفلاً. لقد حفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب. وهو نفسه الذي دفعه إلى فكرة أن يكتـب كتابه الخاص – حكايته الكبيرة, التي تلعب الأدوار فيها خضروات شبيهة شبهًا مدهشًا بالناس. في «تشيبـوللينو» روح النكتة الطيبة ذاته, والخيال الذي لا ينضب, والروح الإنسانية العميقة ذاتها التي لدى كوللـودي, والطباع الحية – الطيبة والشريرة. لكن روداري تمكـن مـن أن يتحرر من الحلاوة التي اتصف بها أبطال «بينوكيو», الذين بدت قيمهم الأخلاقية حسنة حسنًا مفرطًا, وقطعية على نحو يشوبه الجفاف. ولذلك بدت مملة غالبًا.

يعيش تشيبوللينـو مع أسرته البصلية في مملكة الليمون, التي تنعَّم فيها الأمير ليمون وأعوانه – الفارس بندورة الحقود والسمين, وبرتقالة الطفيلي النهم, والمفتش المستر جزرة... يلقى والد البطل, المسن تشيبوللوني, جورًا عظيمًا من الليمونيين, الذين سجنوه – مدى الحيـاة وأعوامًا كثيرة جدًا بعد الممات – كذلك يملأ الشقاء حياة ابن يقطينة والمعلم عنبة والفقراء الآخرين. وفي نهايـة المطاف يخلع تشيبو لينو وأصدقاؤه الأمير ليمون عن عرشه, ويتزعمون الجمهورية الحرة؛ حيث يوهب القصر الأميري للأطفال, ويبدأ الفتية كلهم يذهبون إلى المدرسة, التي يعلمون فيها «الكثير من الأشيـاء الرائعـة والضرورية كي لا يُسمح للنصابين والمحتالين بالعودة إلى البلاد بعد الآن».

تجعل مغامرات تشيبوللينو الفتيان يشعرون بالميل إلى سلوكه. إنه درس مفيد في الشجاعة والطيبة والفطنة, يلقنه الكاتـب بأسلوب مرح خـال من الموعظة. تعلم الحكاية الفتيان أشياء كثيرة لأن أي حكاية حكيمة, كما يعتقد روداري, هي «مخزن» للطبائع. والمصائر, ومن هناك يستمـد الطفل المعلومات عن الواقع الذي ما زال لا يعرفه. ويستمد ملامح المستقبل الذي لا يحسن التفكير به بعد».

لم تكن الطريق إلى الاعتراف بجاني روداري مفروشة بالورود. فعلى الرغم من أن أعماله كانت تنشر طوال الوقت في الصحافة, وعلى الرغم من صدور كتيبات عدة حكايات وقصائد للأطفـال من تأليفه, فإن نجاحه ككاتب لم يكن يحظى بالإجماع في إيطاليا, ولم يعره مواطنوه الاهتمام الحق إلا بعد أن نقل له مارشاك إلى الروسية «مغامرات تشيبوللين» وأشعاره. يقول الكاتب عرفانًا: «كان الاتحاد السوفييتي البلد الأول الذي عامل حكاياتي وقصائدي بمثل هـذا الـدفء السخي, معترفًا بها حتى قبل إيطاليا, التي صارت مؤلفاتي تنتشر في الكتب المدرسية فيها منذ بضعة أعوام فقط ».

في مقالته «لماذا ترجمت قصائد جاني روداري» يقول مـارشـاك: «لا يحسن نظم القصائد الجديرة بأن تـكـون جنبًا إلـى جنب مـع الأغـانـي الشعبية إلا شـعـراء يعيشون مع الشعب حياة مشتركة ويتحدثون بلغته. وأرى أن جاني روداري هو من هؤلاء. إنني أسمع في أشعاره أصوات الفتية الذين يلعبون في شوارع روما وبولونيا ونابولي».

يـفـكـر الـكـبـار: «يـا للشياطين!
الصيف الرحب يفتح ذراعيه,
فيما نـحـن نكتب الـكـتـب في الوزارات,
بدلاً من رمي السراويل,
التخبط مثل الأطفال في البركة,
في ساحة ماستاي فيزّيتي القديمة».

لقد ساعده تواصله المستمر مع الفتيان مساعدة كبيرة على الإبداع, ففي أثناء لقائه بهم كان يطلعهم على حكاياته وقصصه الجديدة غير المنشورة كي يرى كيف سيتقبلونها. يقول جاني روداري: «كنت واثقا من أن الأطفال في مكان ما سيضحكون لزاما فلم يفعلوا. لقد لحظتَ أن جملة ما تحتوي على كلمة أو فكرة ستشكل لهم صعوبة. وفجاءة يضحكون؛ حيث لم تتوقع ذلك إطلاقا, وكأنهم يملون عليك: هكذا عليـك أن تكتب, هذه لقطة جيدة...»

كـان لـدى جاني روداري كتابه المقدس الخاص «الكتاب الأبيض». هكذا كان يسمي دفتره الذي ظل يسجل فيه على مدار ثلاثين سنة ملحوظاته وأفكاره والوقائع المثيرة للفضول والجمل الذكية والتعابيـر المضحكة. تراكمت أشياء كثيرة على صفحاته، وكانت عليها كذلك تأملات حول خصوصيات المخيلـة وعمل الخيال. وفي النتيجة انصب ذلك كله في الكتاب الذي وضع فيه بسهولة وسلاسة وبلغة محكيـة وعلى نحو مفهوم أفكاره الأثيرة حول طبيعة إبداعه ككاتب – قاص. لقد سمى هذا الكتاب « قواعد المخيلـة» مضمنًا إياه عنوانًا فرعيًا «مدخل إلى فن ابتكار القصص». هذا الكتاب موجه للكبار, مع أن الكثيرين من الفتيان, كما يقول روداري مازحًا, قرؤوه «بالخطأ»..ولم يخل من فائدة لهم, لأن هذا الكتاب يعلم الجميع – الصغير. والكبير – فرحة الإبداع. يؤكد الكاتب على أن فكرة «قواعد المخيلـة» هي أن الخيال ليس امتيازاً لأشخاص قليلين بارزين؛ بل وهب للجميع.

يسعى روداري أيضًا إلى أن يعلم الأهل والفتيان كيف ينبغي ابتكار الحكايات, وبأي وسيلة يمكن إيقاظ المخيلة, وكم هي ثمينة للإنسان مقدرته على أن يفكر بطريقة سليمة, وكم هي ضرورية له.

يمكن أن تساعد الطفل في هذا أبسط المواد المحيطة به يوميًا. مثلاً الصحن. يشير روداري قائلاً: «أعطوا الطفل الحرية. وحسب، وسيحوله لكم إلى أي شيء ترغبون. إلى سيارة. وطيارة. لِم يجب منعه من هذا؟ ما المصاب إن تحطم الصحن في أحيان أخرى؟ الأفضل لنا أن نفعّل اللعبة – فنحن وإياكم نمتلك رؤية أبعد. الصحن يطير. الصحن يطير ليزور الجدة والعمة, وليزور البابا في المعمل.. ماذا عليه أن يقول لهم؟ وبماذا سيجيبونه؟ نقف, نحن الكبار, لنساعد (بيدنا) الصحن «في طيرانه» في الغرفة, ها هو يتجه نحو النافذة, عبر الباب, إلى الغرفة الأخرى, يعود وفيه قطعة سكاكر أو «مفاجأة» أخرى غير حكيمة. الصحن طائرة والملعقة الطيار. ها هو يحوم حول المصباح مثل الكوكب حول الشمس.« يرتحل حول الكون؟» – قولوا للصغير بأنفسكم. الصحن سلحفاة... أو حلزون. الفنجان قوقعة الحلزون. (سندع الفنجان تحت تصرف القارئ ليتمرن به بنفسه).

كان روداري مقتنعًا بأن ليـس في الطبيعة مادة أو كلمـة لا يمكن أن تعطي مسوّغاً لحكاية. يمكننا حتى أن نبتكر قصة مسلية من «لا شيء». كان يا ما كان, كان مرة رجل من لا شيء, سار في طريق من لا شيء, تؤدي إلى لا مكـان. التقى بقط من لا شيء, ذي شارب من لا شيء؛ وذيل من لا شيء. ومخالب من لا شيء, ثم التقى بفأرة من لا شيء وسألها:
ألا تخافين القطط؟

أجابت الفأرة من لا شيء: إطلاقًا. في هذه البلاد من لا شيء لا توجد إلا قطط من لا شيء. عدا ذلك فإنني أحب الجبن, مع أنني آكل الثقوب فقط. لا تفوح منها أية رائحة, لكن مذاقها حلو.

كشف جاني روداري في كتابه «قواعد المخيلة» عن أساليب غير قليلة تساعد على توليف المخيلة على الموجة المناسبة بسرعة. بيد أن المؤلف يحذر من عدّ هذا الكتاب مجموعة وصفات لتحضير الحكايات: «إنـه وحسب رحلة متواضعة إلى منطقة المخيلة, على اعتبـار أنها سلاح معرفة الواقع, هذه المعرفة التي إذا تتبعت طريقها غصتَ في سفاسف الحياة ولم تمتط السحاب. إن شئتم فهي سلاح للنضال،وليست درعاً».

يكتب روداري: «الإبداع هو مستودع فريد للتفكير؛ أي المقدرة على تحطيم أطر الخبرة المتراكمة الاعتيادية باستمرار. العقل المبدع هو العقل النشيط المستكشف, الذي يجد المشاكل حيث لا يراها الآخرون, عادين أن لكل شيء رداً جاهزاً, إنه يحس بنفسه كمـا السمكـة في الماء في المواقف المتبدلة,. ويكون قادرًا؛ حيث لا يلوح أمام الآخرين سوى الخطر, على اتخاذ قراراته الخاصة, المستقلة, غير المتعلقة بأحد (لا بأبيه ولا بالبروفيسور ولا بالمجتمع), إنه يشجب ما يفرض عليه, ويعيد العمـل بالأشياء والمفاهيم من غير أن يسمح لنفسه بالوقوع في أحابيل المفاهيم السائدة. هذه الصفات كلها تظهر في عملية الإبـداع. وهذه العملية – اسمعوا, اسمعوا – مرحة ولعوب حتى حين يدور الحديث حول الرياضيات الصارمة».

لقد عبّر جاني روداري بمرح. وذكاء، كما هي الحال دائمًا عن عقيدته الإبداعيـة ورمز إيمانه في الحديث الذي صرح به في أثناء تقليده وسام أندرسن:

«يمكن الحديث عن أشياء مهمة وجادة ونحن نروي الحكايات. بالمناسبـة, من هم هؤلاء الذين نسميهم أشخاصًا «جادين»؟ فلنأخذ مثلاً السينيور إسحق نيوتن. أظنه كان رجلاً جادًا جدًا. حسنًا, مرة, إذا ما صدقنا القصة, سقطت تفاحة على رأسه. لو كان غيره مكانه لقـال كلمتين غير لطيفتين، وراح يبحث لنفسه عن شجرة أخرى كي يرتاح تحتها. أما السينيور نيوتن فعلـى العكـس. شرع يفكر: «لماذا سقطت التفاحة إلى أسفل ولم تطر في السماء؟ لا إلى اليمين ولا إلى اليسـار؛ بل إلى الأسفـل حصراً؟ أي قوة غامضة جذبتها؟ إن أي إنسان محروم من المخيلة كان سيظن أن هذا النيوتن شخص غير جاد, ما دام يؤمن بالحكاية: يظن أن ساحرًا يقبع داخل الأرض وهو الذي يجذب التفاحات... في مثل سنه ويصدق هذه الترهات... أما السينيور نيوتن فقد اكتشف اكتشافًا مهمًا, معروفًا الآن للجميع. هذا تحديدًا لأنه لم يكن إنسانًا محدودًا. ولديه خيال جيد، وكان ذا مقدرة على تفسير ما هو غير مرئي. كي يكون المرء عالمًا عظيمًا فإنه يحتاج إلى مخيلة هائلة. حين تتوافر المخيلة القويـة فقط يمكـن تصـور المستقبل والشروع في العمل للاقتراب منه. إنني أعد أن الحكايات –القديمة. والحديثة – تستطيـع أن تساعد في تربية العقل. الحكاية هي مخزن الفرضيات المحتملة المحتملة. تستطيع الحكاية أن تقدم لنا المفتاح كي ندخل الواقع بطرق جديـدة, ويمكنها أن تساعد الطفل على معرفة العالم, ويمكنها أن تهبه المخيلة، وتعلمه كيف يتقبل المحيط بأسلوب نقدي... لا, ليس في العالم أروع من ضحكة طفل, وإذا استطاع ذات يوم رائع أطفال العالم كلهم, بلا استثناء, أن يضحكوا كلهم دفعة واحدة, مجتمعين, فأظنكم ستوافقون على أنه سيكون يومًا عظيمًا!

شعـر الأطفـال .. أهميتـه وخطورتـه

مصطفى عكرمة

أرى من المفيد أن نضع بين أيدينا أهم القواعد التي من الأهمية بمكان أن نبني عليها دراستنا لشعر الأطفال، أهمّيته وخطورته، ونحن نلقي ضوءاً نحاول من خلاله أن نتبيَّنَ مدى نجاح بعض التّجارب الشعرية أو عدم نجاح تلك التجارب التي سنمرُّ على بعضها ـ ولو لماماً ـ في هذه الدراسة.

من المسلَّم به أن شعر الأطفال يجب أن يتميَّز بخصائص من شأنها أن تجعل منه شعراً ملتزماً واعياً أهميَّته، مُؤدّياً رسالتهُ، مدركاً مخاطره، أجيالُ أمَّتنا كلّها في أمسّ الحاجةِ إليه...

فالوضوحُ أوّلاً، وبساطة العرضِ ثانياً، وسهولة اللغة بجُملها القصيرة، إلى جانب مفرداتها الواضحة مع الاختصار والتركيز للوصول إلى المعنى بأقلِّ عددٍ ممكنٍ من المفردات، التي من شأنها أن توفِّر الجهد الطفلي الذي يظلُّ جذبُه أهمَّ غايةٍ من غايات الشعر وأهميته... ولا بأس في ذلك من التكرار غير المُمِل، والتأكيد غير المتكلف على الغاية والهدف من ذلك الشعر المنشود.

ولعله من المفيد أيضاً أن نشير إلى أن القالب الرديء يُفقد أثر المضمون الجيد، ولا تشفع له جودة الموضوع... وفي مقابل هذا فإنَّ الغموض والتكلُّف والألفاظ الصعبة والتراكيب الغريبة وصعوبة تقبّل الأفكار لها، كل ذلك من أهم دواعي العزوف الشديد عن القراءة بصورة عامّة، وعمّا ينشر من الشعر الذي لا تنطبق عليه معظم هذه الخصائص، حتى وإن كان يُسمَّى زوراً بشعر الأطفال ولو جاء في قوالب فنّية جميلة، فعدم الالتزام بأهم هذه الخصائص يلغي ما ليست متوفرّةً فيه هذه الخصائص، والوزن ـ والعمودي منه بخاصَّة ـ مهمٌ جدَّاً في شعر الأطفال لما فيه من خصائص جمالية، وإيقاعات محبَّبة ذات جرسٍ موسيقيٍّ يزيدُ من جمالها، إذا جاءت بأوزانٍ خفيفة يسهل حِفظُها ويعذبُ إنشادها، وتُغري بترديدها والتعايش معها، كما تجعل الترابط مع تراثنا العظيم قائماً ومُيسّراً وهذا أمر في غاية الأهميّة.

وعلينا أن نذكر دائماً أنَّ الأطفال هم أكبادنا التي تمشي على الأرض، وهم الميدان الهام لتنمية قدرة الطفل على الإبداع، وبعث القدرات الابتكارية، وهم بالضرورة والتربة الأصلح لما نريد بها زرعهُ، فتمثّلُ القيم في خيال الطفل يتجلّى في حركات وتصرّفات وسلوك في حياتهم، وهو وسيط مناسب في الجانب التربوي؛ لأن تنمية القدرات الذهنية واستقرار الجوانب النفسية يتيح الشعور بالرضا، والثّقة بالنفس، وحب الحياة، والتعامل مع البيئة، ورسم المستقبل؛ كل ذلك حينما يكون الشعر قد أصبح عقيدةً راسخةً وإيماناً يُذلِّل كلَّ صعبٍ وعسير، ويغري بكل جميلٍ وجليل، ولا بأس أن نتوقّف هنا بقدرِ ما يسمح به المجال عند شعر الأطفال في مناهجنا التعليمية قديمها وحديثها، لنرى كيف تطوّر ذلك حسب بيئة كلِّ شاعر وعصره بمقتضى ما تلهمه تلك البيئة، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ جدّاً ـ كما أراه ـ.

أذكرُ حينَ كُنَّا في المرحلة الابتدائيَّة كيف كنَّا نخرج في صفٍّ واحدٍ وإلى جانبنا جميع الأساتذة، يحرسون خطَّ سيرنا نحو أمكنة يحلو إليها المسير خارج البلدة، نستنشق هواء الربيع المنعش، ونتنسَّم نسماته الشذية العذبة، وكان ذلك تحقيقاً لما قاله الشَّاعر أنور سلطان يرحمه الله؛ إذ كانت له قصيدة جميلة لا أزالُ أكثر منها أبياتاً تنسابُ على شفتي بعد مُضي أكثرِ من ستَّةِ عقودٍ، يقول:

إنَّا قصدنا مرَّةً
في عصرِ يومٍ ضاحيةْ

نمشي على أقدامنا
بين الجهاتِ الخاليةْ

فإذا الحقولُ جميلةٌ
تروى بماءِ السَّاقيةْ

إلى آخر هذه القصيدة الوصفيّة التي يُحِسُّ جمالَها كلُّ طفلٍ، ولاسيما مَن أنعم الله عليهم فعاشوا في أحضانِ ريفهم الجميل الهادئ، أو في غوطة دمشق الخلاّبة، وما ماثلها من غوطة حمص وحماة واللاذقية في بلادنا المُفعمة بالسحرِ والجمال.

لقد جاءَت هذه الأنشودة استجابةً أو استلهاماً من عامل المكان، ولهذه الأنشودة مثيلات وكلّها مُفعمة بخصائص الشعر الطفلي الجميل، ومثل هذه الأناشيد الجميلة غير قليل، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

ســـاعـــة نـــومـــي هـــاهـــيـــهْ
تـــدُقُّ لـــي ثـمـانـيـهْ
وأحـــبُّ الـــنـــاسِ لـــي أمّـــي
ومـــن بـــالـــرّوح تـفـديـنـي

ولابأس عندي في أن أتوقّف عند «أنشودة» كُتِبت بعد قرنٍ تقريباً من كتابة هذه الأناشيد، وهي في الموضوع السابق ذاته، وأعني موضوع النّزهة، لنتبيَّن خطورة الشعر المُفتَعل القاتل لكلِّ تذوّقٍ شعريٍّ بالرغم من مُحافظتهِ على الوزنِ الأشبهِ بالسليم، والقافية الواحدة على رغمِ ما فيها من قلقِ وجرٍ ونفور ، تقول الأنشودة المنشورة حديثاً في مجلة «أسامة»:

خرجتُ وبعضَ أترابي
نسيرُ «ضِفّة» النّهرِ
ونرجو «فيهِ» أنْ نلقى
«أفانيناً» من «العطرِ»
جمالُ النهرِ ألوانٌ
وفيهِ بهجةُ الصدرِ
نسيمٌ منهُ طالعَنا
بألطفَ من شذى الزّهرِ
وما زلنا نُسايرهُ
على «شُطآنه» نجري
ففاجأ سيرَنا «نَسَمٌ»
«خبيثٌ» فاحَ من «قذْرِ»
فأوقفَنا، وأرجعَنا
بلا إذنٍ ولا «عُذرِ»
أسِفتُ وقلتُ يا «وَجعي»
لِما قدْ حلَّ «بالطُّهرِ»
رموا في النّهرِ «أوساخاً»
وقالوا: «نحنُ لا ندري»

وقال شاعرٌ آخر أظنُّ أنّهُ أقدمُ من أمثال هؤلاء المُتشاعرين زماناً، أرادَ أن يُعلِّم الأجيال معنى الحريّة التي كانت عندنا مُستلبة، فقالَ في قصّة «فرار البلبل» الذي توفّر لهُ في قفصهِ كلُّ ما يحتاج إليهِ من دونِ أن يتعَب نهاره في الحصول عليه من البراري الواسعة:

قدْ كانَ عندي بُلبُلٌ
في قفصٍ من ذهبِ
قدْ فرَّ مني ونأى
من دونِ أدنى سببِ
وقالَ لي: حرّيتي
لا تُشترى بالذّهبِ

وقبلَ هذه الأناشيد طالَعنا أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله بأُنشودةٍ لمْ تَزَلْ مُعتَمدة في مناهجنا التّعليمية لِما تُصوّرهُ من عاطفةِ الجدَّة، فالتقطت ريشتهُ هذه الصورة البديعة عن الطّفلِ الذي يُخطئ ويتبعهُ والده لكي يعاقبهُ فيحتمي بجدّتهِ الحنون فهي ملاذهُ الأمين، وحِصنهُ الحصين، فأبدعَ برسم تلك الحادثة فكانت أنشودتهُ تعبيراً عن الزّمان الذي كانت فيهِ الأسرة مُتآلفة مُجتمِعة يعيشُ الأبناء والأحفاد في جوٍّ دافئٍ من الحنان والتّعاطف والتّكامل فيقول:

لي جدّةٌ ترأفُ بي
أحنى عليَّ من أبيْ
وكلُّ شيءٍ سرّني
تذهبُ فيهِ مذهبي
إنْ غَضِبَ الأهلُ عليَّ
كُلُّهم لمْ تغضبِ

وأحسبُ أنّ هذه الأنشودة معروفة إن لم تكن محفوظة لدينا جميعاً.

وجاءَنا حديثاً الشاعر سليمان العيسى أمدّ الله في عمره، لنقرأ له قصيدة عن الرسام الصغير، فيقول بعدما أصبح الرّسم مادة مُعتَمدة رسمياً في المناهج التّعليمية، إذ لم يَعُد مقبولاً من العيسى أن يكتُب عن القفص والعش والنزهة في عصر «الحرية»، فالرّسم أصبحَ مما يُحبّهُ الأطفال ويبحثون عنهُ ويتعشّقونَ قراءة ما يكونُ الرسمُ إلى جانبهِ قصّةً كان أم شعراً.. والرّسم أيضاً أصبحَ من اهتمامات وسائل الإعلام بهِ لتجذب إليها القُرّاء والمُشاهدين، فكثُرَ الرّسامون كثرة تتزايد يوماً بعدَ يوم، وصارت لهم به مكانتهم اللائقة، وهكذا كان التّطوّر في تناول موضوعات الشّعراء بما يستلهمونه من بيئاتهم وحاجة مجتمعهم إليه.

ونرى من جانب آخر أنّ الشاعر سليمان العيسى الذي يعدُّ نفسه من الرّعيل الأوّل لتأسيس حزبه، نرى أنّه قد نقلَ همومه السّياسيّة والقوميّة إلى الأطفال بأناشيد لا تنقصها اللغة السليمة ولا الغنائيّة العذبة، فلم يدع فرصة لتحميل الأطفال همَّ جيله «الكبير» إلاّ واستغلّها، فكتب عنهم ولهم ما لم يكتبه شاعرٌ آخرُ في هذا المجال الذي حمّلهم فيهِ تلك الهموم الكبيرة، مُتعجّلاً في توظيف طفولتهم وبراءتهم بما يريدُ منهم ولهم، حتى سمعنا من قال عنه: إنه شاعر كبير يعيش همومه القومية الكبرى وينقلها إلى الطفل الصغير، والطّفل في هذه المرحلة لم يعرف الهمُّ إلى نفسهِ سبيلاً، في حين أنّهُ علينا كمربّين وموجّهين ألاّ ندعَ الهمّ يتسرّب إلى نفسهِ أبداً..

والشاعر العيسى لم ينكر على قائلي هذا عنه، إنّما أيّده وبرزّه بقولهِ:

«يجب أن نُبقي هذه المعاني في ذاكرة الطّفل يكبر معها وتكبر معه.»

ومع التّاكيد على أنّ العيسى هو من أغزر من كَتَب للأطفال، حتى أصبحت أناشيدهُ هي

المُعتمدة غالباً في مناهج وزارة التّربية السورية؛ إذ كان أحد أهم المسؤولين عن مناهجها، وهذه السيولة الهائلة في الكتابة جعلت بعض أناشيدهِ لا تخلو من الملاحظات التي يُفترض أن يكون شعرهُ خالياً منها، ولنتوقّف عند هذا النّشيد:

هاتوا ورقهْ
هاتوا قلما
أرسمُ.. أرسمُ
عيناً وفَما
***
أرسمُ وجهاً
حلواً جِدّا
وجهُ الماما
حلوٌ جِدّا
***
أرسمُ هِرّاً
أرسمُ أرنبْ
أدعو الهِرَّةَ
حتّى نلعَبْ
***
أدعو الأرنبْ
يأتي حالا
يا طفلاً يهوى الأطفالا
***
هاتوا لي
أحلى الأقلامْ
قولوا مرحى للرّسّامْ

وهذه المقطوعة الصغيرة هي في ظاهرها مُناسبة من حيث حجمها للأطفال، غنيّة بموسيقاها، سهلة ألفاظها مُتحرّكة صورها، لكنها لا تحمل مع كلِّ هذا القيمة التّربوية التي يجب أن نحتفل بها، وتنهض عليها الأنشودة، وإذا أمّعنّا النّظر في هذه الأنشودة نجد فيها الملاحظات السّريعة، فقد بدأها بقولهِ: «هاتوا ورقةْ»، ولا يجوز التّسكين هنا عَروضياً، وقال: «وجه الماما» وكان أجمل لو قال: «وجهكِ أمّي» وقال: «أرسمُ هِرّاً» وكرّرها قائلاً: «أدعو الهِرّة» فمرةً أتى بها مُذكّرة، ومرة ثانية بعد كلمتين فقط مؤنّثة، وكان هذا بحكم الوزن، كما أنّه كرّر

كلمة «أرسم» ثلاث مرّات، ومنها قوله: «أدعو الأرنب» وهو المرسوم بيد الطّفل على الورق، فيأتي الأرنب حالاً ليلعب مع راسمهِ، والأرنب شديد الحذر. لا يمكن أن يأتي حالاً، كما أنّ الأرنب الذي دعاه للعب معهُ لايهوى الأطفال، ولا يُلبّي دعوتهم حالاً. ثم إنّ لفظة الأرنب يُفهمُ منها هنا أنّه أرنبٌ مكتمل النّمو، وهو في الشطر الثاني طفل يهوى الأطفال، وهذا التّحليل لهذه الأنشودة وما شاكلها إنّما هو وجهة نظرٍ منّا ، وأحسب أنّ للشاعر العيسى وجهة نظره أيضاً، ولقد بيّنتْ دراسة علمية قام بها الدّكتور الموجّه أحمد علي كنعان نال عليها الدكتوراه بدرجة امتياز، أن اهتمام الشّاعر العيسى بالقيم التربوية كان أقلّ من اهتمامه بما عداها من القيم الكثيرة الأخرى.. ولكلٍّ وِجهةٌ هو مولّيها.

ومن شعراء مصر المعروفين بالكتابة للأطفال الشاعر ابراهيم شعراوي، الذي عرَّف به الرَّائد في أدب الأطفال الأستاذ عبد التَّواب يوسف تعريفاً مُفصّلاً، فقال عنه: «إنَّه (ابراهيم شعراوي) واحدٌ من المهتمّينَ بثقافة الأطفال وأدبهم، لا في مصر وحدها؛ بل على مستوى الوطن العربي، وهو سكرتير عام جمعية ثقافة الأطفال في القاهرة، وصدرت له عشرات الكتب للأطفال».

هذا ما قاله الأستاذ عبدالتّوّاب يوسف الذي نقف باحترام وتقدير أمام عطاءاته للأطفال، وجاءَ كلامه هذا عن ابراهيم شعراوي في كتاب «شعراء الأطفال» الصادر عن الهيئة العامّة للكتاب سنة 1988. ولنقف قليلاً عند هذه المقطوعة لهذا الشاعر:

أنا الزرَّاعُ فلتنظرْ
إلى عالمنا الأخضرْ
وعندي البيضُ في حقلي
وعندي عسلُ النَّحلِ
وعندي الفولُ والعدسْ
مع الملفوفِ والخسْ
وعندي اللحمُ والسمنْ
وعندي الزبدُ والجبنْ

أحسبُ ـ وكما تلاحظونَ ـ أنه لم يوفّق في هذه المقطوعة ولو بشطرةٍ واحدة لها نكهة الشعر وعذوبته، بل ولا حتّى في كلمةٍ مستقرّةٍ يشعر الطّفلُ من خلالها أنّه يلمح شعراً كُتبَ له، وأعتقد أنَّه سوّغ لنفسه هذه المقطوعةَ أن يعرَّفَ الطفلَ بما عند الفلاّح، في حين أنَّ ما ذكره قد يكون متوفِّراً في معظم البيوت، وهذا «الدّافع الوظيفي» إلى كتابتها لا يشفع له في اعتقادي في شيء إلاّ إذا كان قد كتبها ليُرضي وأمثالَهُ التزامهم السّياسي حول مَنْ كانوا شعاراتٍ أو شبه شعارات، كما فعل ويفعل الكثيرون.

فإذا ما حلّلنا له هذه المقطوعة وأظهرنا ما في تراكيبها من ضعفٍ وركاكةٍ، وما في وزنها من زحافاتٍ وجوازاتٍ، لوجدنا أنها أبعدُ ما تكونُ عن عالم الأطفال وأذواقهم، وتقبّلهم للشعر الذي له في تخيُّلهم كلُّ جميلٍ شكلاً وصورةً وموسيقى، مما يجعلهم لا يتقبّلونَ معها هذه المقطوعة وأمثالها، مما تعُجُّ به دواوينُ لم تعُدْ قليلةً، حتَّى وإنْ كانت لشعراء مشهورين حملهم الإعلام الذي هم في دائرته، فكانوا بما ارتكبوه جنايةً على الشّعر بعامّة، وشعر الأطفال بخاصّة الذين هم كما نأمل لهم ومنهم أن يكونوا حملةَ هذه اللغة الكريمة الواحدة الموحّدة لعالمنا العربي، إنّها في اعتقادي جنايةٌ لا يُستهانُ بخطرها، وماذا بعد إغفالِ أهميّة اللغة الأم وتراثها إلا ما لانتمناه ونجأرُ إلى الله ألاّ يكون.

ولستُ أنكرُ إطلاقاً عند بعضِ شعراءِ الأطفال شعراً نالَ قسطاً وافراً من التوفيقِ والإبداع، الذي نجد فيه ولو بعض عزاءٍ عمَّا نجدُه عند من يظنون أنفسهم قد كتبوا للأطفال، وفي حقيقة الأمر إنهم كتبوا عن الأطفال وليس للأطفال كما يظنّون، والفارق بين الكتابتين خطيرٌ وكبير.

حقّاً لقد كثُرتْ المقطوعات التي اتّكأ كتّابها على الوطن والعامل والفلاّح وما إلى ذلك، ولستُ أُنكر هنا أهمّية الكتابةِ لهؤلاءِ وأمثالهم ممن لهمُ الفضلُ في حياتنا، لكن أن نقحمهم في كتاباتٍ لا تمتُّ لهم بصلةٍ، ونجعلَ كتاباتنا لهم شعارات ومتّكآت، فليس هذا في صالحِ أحد أبداً.

ومن هنا أقولُ مع القائلين: إنَّ القصَّة كانت أكثر توفيقاً وأوفر حظّاً بالوصول إلى الأطفال لتعدد مصادرها، ووفرة أنواعها وكثرة المتخصصين بها، وسعة دائرة العمل بها تأليفاً واقتباساً وترجمةً، ولقد وجد كتّابُ القصة في تراثنا الخالد ما أمدّهم بغناه اللامحدود بكمٍّ هائلٍ ومتنوّعٍ من القصص التي أعادوا كتابتها كما جاءَ أحياناً، أو وظفوها لأغراضٍ تربويّة أو تجاريّة تُناسبُ ما هدفوا إليه، أو اعتمدوا فكرتها وطوّروها أو مسرحوها أحياناً، وهذا كلُّه لم يتوفّر أقلُّه للشعر، الذي تقفُ صعوباتٌ كثيرة في تحقيق النجاح المطلوب والمنشود منه وله.

إن ثقافة الطِّفل والكتابة عنها موضوعٌ شائق بقدرِ ما هو شائك، ولولا مداهمة المساحة المحدودة لسُقتُ هنا الكثير من الأمثلة.

وإذا ما عُدنا إلى بدايةِ ما قلناه من ضرورةِ أن نضع قواعِدَ ضابطةً لقواعد الشعر للأطفال بخاصّة، فإنني أؤكد بكل الصِّدقِ والجرأة والأمل أنه يجب -وأؤكد على كلمة يجب- أن تتوفر هيئة عامّة من كبار المبدعين والمتخصصين والتربويين، وليس من الدّارسين المُنظِّرين القابعين على كراسيهم يوجّهون ويفلسفون ولا شيء يفعلون، ولعلَّ في تجربة «افتح يا سمسم» الرّائدة التي توفّرت لها تلك الهيئة الواعية ـ مع أنّها مُقتبسة أو شبه مُقتبسة في بعض مجالاتها ـ لهو خيرُ دليلٍ على نجاح الالتزام بتخطيطٍ واعٍ يعرفُ القائمون عليه ما نريد لأطفالنا، ويعرفون سُبلَ الوصول إلى مانريد.

وخلاصة القول: إنني أرى أن أفضل ما يجيء الشعر منه هو حالة شعورية تنتج عنها دلالةً لغوية، وبقدرِ ما تكون اللغة واضحةً ومبسّطة، تكون مؤهَّلة لتؤدّي دورها البارز في كتابة الشّعر المنشود، ثم تأتي الدلالة التّصويريّة، والتّصوير هو الإطار الجميل الذي يحدد وجهتنا إليه، ترافقها وتزاملها دلالةُ الإيقاع المُحبّب الذي يشدُّ إليه الأذن التي تنقله إلى الأعماق.

بهذا المنظور نصل إلى شعرٍ نتّفق على جودته، فتؤالف فيما بيننا روعته، وبغيرِ توفّر هذه الدلالات لا يكتمل للدور شعره ولا يُؤدي رسالته.. فإذا لم نتلمّس فيه هذه الدلالات مُجتمعةً فإننا سنكون مع شعرٍ يعذرنا قائلوه إذا كنا سنظلُّ نُطالبهم بما نتمناه لهم ولنا معهم.. ولمن يرى ما لانراه ما نعذرهُ عليه.

رمزية الغراب والهدهد عند بعض كتاب القصة الطفلية السورية

سلوم درغام سلوم

أدب الأطفال هو رافد من روافد التربية الثقافية للأطفال؛ حيث يقوم بتربية النشء وغرس الأفكار، والقيم والاتجاهات الخلقية والإنسانية الصحيحة التي يؤمن بها المجتمع، وتكون القصة الجزء المهم في الأدب كرافد ثقافي له أثره في تنمية المهارات والقيم الايجابية وتعديل سلوك الأطفال. وعالم الطيور مجال رحب عند كتاب القصة الطفلية، لأن الطير كشخصية قصصية تجذب الأطفال, ونرى في المجموعات القصصية للطيور حضوراً وافراً,حيث باتت أنسنتها لطيفة تساهم في تنمية خيال الطفل.

- في قصة(الهدهد الصغير)(1) رصد الكاتب ضياع الهدهد الصغير بينما كان الأب يحل خلافاً بين العصافير، والخلاف: هل التوت الأبيض أطيب من التوت الأحمر؟! فراحت الأم والأب يبحثان عنه؛ فالأب يقول للذي يسأله: لونه أبيض، والأم تقول: لونه بني, وعاد الهدهد إلى العش، وحتى لا يضيع قامت الأم بتلوين ريشه، وأخذت من ريشها وشكّلته في رأس الهدهد على شكل مروحة، وهنا صار فريداً ومعروفاً. هنا يحاول الكاتب في هذه القصة أن يطرح أموراً عدة منها نتائج انشغال الأب عن ولده في أمور سطحية, ومنها دور الأم في وصول ابنها للتميز على أقرانه في كل المجالات. ومنها أهمية تقديم الأم شيئاً من ذاتها وحياتها وكيانها لطفلها.

ـ أما في قصة (جزاء من سرق الفراخ)(2)التي تتحدث عن الغراب الذي أكل فراخ القبرة خلسة, وسألت جيرانها: الثعلب والخلد والذئب ونقار الخشب, وبيَّن كل حيوان ماذا يأكل, وعرفت القبرة أن الغراب هو الفاعل من منقاره، وخاصة عندما ادعى احمراره من العنب، وشهد الثعلب بعدم وجود العنب بكل المنطقة, وفي الاجتماع رأى بعضهم أن تأكل القبرة فراخ الغراب, وخالف هذا بعضهم لأن الفراخ لا ذنب لها, ورأى الجميع أنَّ العقاب يكون بمقاطعته، وهنا توارى الغراب بعيداً. ترصد هذه القصة أمراً جميلاً يعتمد على مثل (كل عنزة معلقة بكعوبها) وأن المذنب هو من يأخذ العقاب لا أولاده ولا غيرهم, والمقاطعة عقوبة لا تحمل الاصطدام مع المعاقَب وهذه تربية سلوكية في الحياة تحرِّض الطفل على سلوك لا يحمل الأذى له وهو ناجع ومؤثر.

ـ و في قصة (الغراب والوطن)(3)تتحدث الكاتبة عن غراب صغير عاقبته أمه بالحبس في العش بسبب عصيانه، فترك غابته وهرب لغابة ثانية, وانضم إلى مجموعة من الشحارير, بعد أن اشترطوا عليه أن لا يرفع صوته, ومنعوه من الغناء, وهنا شعر بالاختناق والكآبة, ومرت مجموعة من الغربان فعطفت عليه وأخذته معها, وعرفت قصته, وصنعوا له احتفالاً كبيراً, ولكنه بقي حزيناً, لأنه رأى في نومه أمه تبكي عليه وأباه يبحث عنه, فراح يغني الأغنيات الحزينة, ومن خلال صوته عرف مكانه أبوه, وعندما رأى الغراب الصغير أباه انهمرت دموعه, وفي هذه القصة زرعت الكاتبة حب الوطن عند الطفل, وأكدت أنه لا بديل عن الوطن والبيت, ولا حرية من دون وطن, وأن الحنين للوطن يجعله منشدّاً إليه, وأن تعلق الأهل بأولادهم يجعلهم في حالة شوق كلما ابتعدوا, وأنَّ هجرة الأولاد تزعجهم, وأن في الهجرة يعاقب الإنسان نفسه.

- وفي قصة (حكاية الهدهد)(4) وصفت الكاتبة تاج الهدهد المميز الذي توَّج صاحبه ملكاً على الطيور, وهذا التاج جعله مغروراً ينظر كثيراً في مرآة صفحة ماء البركة. عندها وصل النسر ونعته بملك الطيور, وطلب منه الصداقة, وقدَّم له الولاء, ثم طلب منه ريشة ليتزيَّن بها, فأعطاه الهدهد, وسخر النسر من غروره, ثم طلب الغراب ريشة هدية, ليجعل جسده القبيح جميلاً, قال ذلك بخبث, فأعطاه, ثم قدَّم الشحرور للهدهد قصيدة مديح تصف جماله, فقدم الهدهد له ريشة دون أن يطلب, ثم توالت الطيور وتنازل عن ريشه للمادحين ريشة إثر أخرى, وهنا ضعف جسمه وتعب, ولم يستطع الطيران, ثمَّ اختبأ في تجويف صخري من البرد, وفي الصباح راحت الطيور تعبر من أمامه يحملون ريشاته, وقد سخروا منه, وعندما طلبها منهم قالوا:(إذا كنت ستأخذها فلماذا أعطيتنا إياها.. ألم تعرف مسبقاً ما سيحل بك وأنت تتخلى عنها أيها المغرور)؛ فالقصة تؤكد للطفل أن الذي يتنازل عما يجسّد قيمته, فسوف تكون النتائج أليمة بحيث تغدو صورته قبيحة, ويصبح محطة للسخرية, وتقل هيبته, ويبتعد عنه الدفء والحماية, وتؤكد الكاتبة أيضاً على أمر مهم, وهو عدم الاستهانة أو إهمال مواطن القوة, وعدم التنازل عن الحق, ومن يتنازل مرة تتوالى خطوات التنازل, ونصحت الكاتبة الطفل بالابتعاد عن الغرور لأنه أول خطوة للتراجع.

ـ وفي قصة (حكمة الهدهد)(5) وجدنا أن الهدهد يعبر عن النبض الوطني في عالم الطيور ويقدّم صرخة التنبيه القومي, بعد أن رأى الصيادين قد هدّدوا طيور الغابة بالفناء؛ فهنا دعا الطيور لاجتماع طارئ, وبروح ديمقراطية أقنعتهم بالاجتماع, وإعطاء الحلول, وقد كانت في القصة شخصيات عدة تحاور الهدهد, وهي (العصفور ـ الببغاء ـ الطاووس ـ الحجل ـ الشحرور)

- وهذا الطرح الرمزي على ألسنة الحيوانات ولسان الأشياء, وهذا التحويل من البيئة الطبيعية المباشرة إلى رموز, هما أساس التفكير, وكما رأى (جان بياجيه) إن الانتقال من الأفعال والأعمال إلى الأفكار؛ أي الانتقال من التصور الوظيفي العملي إلى الشكل التصويري هو الذي يساهم في نمو التفكير عند الطفل, و يستفيد من مضمونها الفتى والطفل كل الاستفادة, على الرغم من كونها تطرح القضايا الكبيرة في الحياة الوطنية والاجتماعية, لكنّ الكاتب استطاع ببراعة أن يقرّب تلك القضايا من فهم الفتيان والأطفال بتلك الرموز القريبة من مداركهم.

ـوهكذا جسَّدت شخصية الغراب والهدهد الأبعاد الرمزية في مسألة الوطن وزرع محبته عند الطفل, وهذا أمر مهم للغاية, ويترك الأثر الكبير في المستقبل على شموخ الوطن وتقدمه.

المراجع:
1-مجموعة (ربيع كاذب) للكاتب الراحل عبدالله عبد -مختارات من القصص المنشورة في مجلة أسامة – طباعة وزارة الثقافة – الهيئة العامة السورية للكتاب –مديرية منشورات الطفل في سورية وُزعت هذه المجموعة هدية مع عدد من أعداد مجلة أسامة رقمه (12) 2010م.
2- المرجع نفسه
3- مجموعة((الوقواق- الغراب والوطن-الهدهد) - للكاتبة مريم خير بك منشورات وزارة الثقافة- دمشق 2003م
4- المرجع نفسه
5- (حكمة الهدهد) للقاصة حنان درويش, وهي من منشورات اتحاد الكتاب العرب في دمشق عام 1999 م.

2012/6/16 م - 27رجب 1433هـ
السنة السادسة والعشرون
الأسبوع الأدبي

الطفل والشعر

زهير هدله

عندما يبدأ الطفل تلمس الحياة من حوله، وهو ما يزال في مهده، يطالعه صوت أمه بدفئه المحبب ونبراته الرقيقة الناعمة، يهدهده حتى يأخذه النعاس تدريجياً، ويطير على فراش من الأحلام العذبة، ويطير في عوالم لا حدود لها. وهذا أول عهده بالشعر، ولو أنه شعر من نوع خاص، لقد امتاز هذا الشعر أو أغاني الهدهدة بالإيقاع الرتيب المتواتر الذي تتالى أنغامه هادئة وادعة تسحب الطفل نحو الإغفاء، وهي وإن لم تكن شعراً بالمعنى الصحيح - فقد حملت شيئًا منه بشكل أو بآخر، سواء بالإيقاع الرتيب أو الموسيقا الرقيقة:

نام يا أمي لننام..

لادبحلك طــــير الحمام
ويا حمامة لا تخافي

عم اضحك مع ابني لينام

وما إن ينزل الطفل لملاقاة أقرانه واللعب معهم، حتى يلامس طاقة أخرى من الشعر الغنائي هو أغاني الألعاب، هذا النوع من الأغاني أو الشعر – إن صح التعبير – يمشي مع اللعبة التي يمارسها الطفل، ويكون مستمداً في أغلب الاحيان من البيئة المحيطة بالطفل، ينساب في سلاسة، ويعطي اللاعبين بنقراته الإيقاعية وارتفاع الصوت وانخفاضه أفقاً ما للتحرك، يضيق ويتسع حسب ما يقتضي طقس اللعبة، وتضفي هذه الأغاني أو هذا الشعر – كما اتفقنا – على اللعبة جمالاً خاصاً، وتملأ اللاعبين حيوية ونشاطاً، وتكون أحيانًا ضرورة لتنفيذ اللعبة.

وحين يدخل الطفل رياض الأطفال أو المدرسة، تبدأ رحلته مع سلسلة طويلة من الأناشيد والأغاني، تختلف درجة محبة هذه الأناشيد أو قبولها حسب ذائقة الطفل أو جمالية النشيد وموسيقاه، يروق له بعضها، فيحفظه ويردده، وربما يبقى في ذاكرته إلى مرحلة متقدمة من العمر، ولا يحظى البعض الآخر بهذا القبول، وقد يأخذ الطفل من النشيد موقفا رافضاً يجعله يجد صعوبة في دراسته وحفظه.

وسؤالنا الأول: هل اهتم الشعر العربي القديم بالطفل؟ وإن كان كذلك فكيف؟

في الواقع كان الشعر الذي تناول الطفل في الأدب العربي القديم مقتصراً على شعر الكبار الموجه للكبار والطفل فيه كان: إما ابنًا غاليًا يدفع أباه لتحمل الحياة وقسوتها، ومغالبة الصعب للحفاظ على عيشة رغيدة قدر الإمكان له ولأخوته، تقدم هذا النموذج قصيدة حطان بن المعلى التي تظل ماثلة في ذهن كل قارئ للشعر العربي؛ ففيها زخم من العواطف النبيلة تجاه الأبناء؛ وتختزل في كلماتها كثيراً، من الحب والرحمة:

وإنما أولادنــــــــا بيـــننا

أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم

لامتنعت عيني من الغمض (1)

أو كان – هذا الطفل – ابناً اختطفه الموت من أهله؛ فبكاه الأب الثاكل بالكثير المؤلم من الشعر، ولعل ابن الرومي الذي فقد ولده الأوسط، ورثاه بأكثر من قصيدة، يقدم لنا مثالاً عن الأب الموتور وعن هذا الشعر:

ما أصبحت دنياي لي وطنا
بل حيث دارك عندي الوطن
ما في النهار وقد فقدتك من

أنس ولا في الليل لي سكن (2)

وربما كان من الإنصاف أن نذكر أن الشعر في تلك المرحلة لم يخل من أبيات تشير إلى مواقف تربوية ما، أو يقدم صاحبها نظرية أو نصيحة مما كان يعتقد، كالشاعر ابن الهبارية الذي يرى أن الأم إنما تضرب ابنها لمصلحته، ولأنها أعلم منه وأدرى:

قد تضرب الأم الرؤوم طفلها

فهل يذم ذو رشاد فعلها
وإنما تضربه لنفعهِ

وزجره عن غيه ومنعهِ
لأنها أعلم بالمصالحِ

منه وأهدى للسبيل الواضحِ (3)

نماذج كثيرة من هذا الشعر وهذه الإشارات نجدها في شعرنا العربي لأبي العلاء المعري وابن الرومي.، وقد حمل شعر تلك المرحلة، الذي تناول الطفل ممثلاً بالابن أو الحفيد أو الطفل الإنسان أينما وجد سيلاً جارفًا من العواطف النبيلة والدافئة تجاه الطفل، هذا الكائن المحبب، سواءً بوجوده مالئاً حياة أهله سعادة وأملاً، أو بغيابه المؤلم آخذاً جزءاً من الروح محيلاً، حياتهم سواداً.

والحقيقة أننا لا نقع على شعر موجه للطفل في كتب الأدب لتلك المرحلة، أي أن شعر الطفل أقصد شعر الكبار الموجه للصغار حديث العهد في شعرنا العربي.

وللحديث عن الطفل والشعر لابد لنا أن نعرف ما الصفات التي يجب أن يتمتع بها الشعر حتى يحظى بحب الطفل أو قبوله على الأقل بمعنى آخر: ماذا يحب الطفل من الشعر؟

إن لكل قصيدة أو نشيد مضمونًا يُحاوَل إيصاله وشكلاً يقدم من خلاله هذا المضمون.

فما هو الشكل الذي يرغب الطفل أن تبدو القصيدة أو النشيد فيه؟

يحب الطفل الشعر ذا الموسيقى الجميلة والكلمات العذبة، السهلة في اللفظ والفهم، والمقاطع الرشيقة التي يسهل التوقف عند نهاياتها، لتماشي قدرته اللفظية الضعيفة وأدواتــه الصوتية البكر، مبتعدة قدر الإمكان عن الجوازات التي يصعب على الطفل إدراكها والسير في فلكها لقراءتها بشكل سليم، وهو ينفر من الكلام الضبابي الذي يضعه في حيرة، بينما يحب الكلام الذي يحفز عنده ملكه التخيل والحلم، يكره المطولات ويميل إلى الاختزال، يفضل المحسوس على المجرد، وكلما كان الشعر قريباً منه يحس به ويعيه ويقول عنه ما يريد أن يقول. ولذلك فهو: يحب الشعر الذي يتحدث عن الأخلاق الحميدة كالكرم والشجاعة والإيثار، والمروءة وشعر البطولات الذي يروي نهمه للقوة والسلطة والجاه، ويمنحه شعوراً بالقدرة على قهر العدو:

غن لي أحلى القصائد
عن فتى الفتيان خالد
كان عذباً كالصباح

ونقياً كالأقاح
خالد بن الوليد
عاد يسعى من جديد (4)

ويحب الشعر الذي يتناول بيئته: الاجتماعية

والطبيعية، فيتحدث عن أفراد الأسرة المحيطين به: الأم، الأب، الجد والجدة:

لي جدة ترأف بي
أحنى علي من أبي
وكل شيء سرني
تذهب فيه مذهبي (5)

وعن العناصر البشرية التي تقاسمه معاشه: الحداد، البقال، النجار، عامل النظافة، الاطفائي:

يا عامل الإطفاء
يا أشجع العمال
خذ كل ما تشاء
فالمجد للأبطال (6)

كما تستأثر الحيوانات الأليفة التي تربيها الأسرة أيضاً، والأشياء الصغيرة التي لا تلفت نظرنا نحن الكبار، بنصيب وافر من الشعر الذي يحبه الطفل.

ومن الشعر المحبب للأطفال الشعر الذي يقدم الأبطال والشخصيات التي يعجب بها الطفل، حتى وإن كانت هذه الشخصيات وهمية أو أسطورية كالسندباد وعلي بابا وعلاء الدين والشاطر حسن:

جدنا السندباد
طاف كل البلاد
لا يمل السفر
لا يخاف الخطر
جدنا السندباد (7)

نوع آخر من الأناشيد يحبه الطفل، هذا النوع يتضمن قصة أو حكاية، فيقدم الشاعر من خلال القصيدة حدثاً ما بقالب شعري جميل، وهنا يزاوج الكاتب بين فنين يستهويان الطفل هما الشعر والقصة القصيرة:

وقفت على الغصنِ
نادت أيا أمي
الغصنُ يهتزُّ
رحماك يأأمي
قالت لها الأمُّ
لا تفزعي طيري
الريش قد طالَ
والعظم قد شدّا (8)

ولعلنا لا نغالي إن قلنا إن من الشعر الأكثر حظوة لدى الطفل الشعر الذي يتناول الطبيعة ويغني جمالها؛ فللأزاهير أريجها وألوانها وللعصافير أغانيها، وللفراشات نزهاتها وللنسيم والشلال والوديان والجبال سحرها، ولهذه الطبيعة التي تحيط الطفل في نومه ويقظته بمختلف أقاليمها وفصولها حب كبير، وعلى الشاعر أن يرضي نهم الطفل ساعياً إلى رسم هذا الجمال بكلماته وتراكيبه، والتراقص معها بموسيقاه وتفعيلات بحوره وأناشيد الأطفال يجب (..أن تكون ألفاظها سهلة وأوزانها بسيطة خفيفة وموضوعاتها مشوقة، وأن تحمل أفكاراً بسيطة ونبيلة....) (9)

وقد أجريت استبياناً على مجموعة من الأطفال أعمارهم لم تتجاوز العاشرة، سألت كلاً منهم في البداية لماذا تحب الشعر؟؟

أحدهم قال:- لأن كلماته عذبة وألحانه جميلة، بينما ذهب آخر أبعد من ذلك فكتب (أحب الشعر لأنني أحس أن به ما يكفيني من دفء وحنين أكثر من الكلام العادي).

وقد رفض أحدهم بعض الأناشيد لأن كلماتها صعبة وموسيقاها قليلة الغنائية؛ وعدها تتوجه للكبار أكثر من توجهها له ولأقرانه من الصغار.

وعند السؤال: هل تحب أن تقرأ الشعر؟ أم تسمعه؟ أجمع الأطفال على أنهم يفضلون سماعَهُ من صاحبه لأنه- حسب رأيهم – أقدر على قراءته والتعبير عن كلماته، وهذا يدلنا إلى أن الطفل يريد أن يسمع الشعر ناسياً كل ما حوله، مصغياً كل الإصغاء له، لكي تكون حواسه كاملة معه لالتقاط موسيقاه وملاحقة معانيه وتراكيبه، ومتابعة تعبيرات وجه الشاعر لاستكمال المشهد الشعري الذي ترسمه القصيدة.

ولنسأل أنفسنا الآن ما الدور الممكن أن يقوم به الشعر في تربية الطفل؟ إن للشعر دوراً كبيراً في تنمية ذائقة الطفل الفنية والموسيقية؛ فهو يعوده على تنضيد كلماته وإخراج حروفه مخرجاً صحيحاً، وتنويع الأصوات والنغمات، وتمييز الجميل من البشع والمحبب من الكريه.

والشعر يرفد المعجم اللغوي للطفل بالكثير من التراكيب والكلمات الجديدة الجميلة، ويعوده البحث عن المعاني الجميلة والشعرية لهذه الكلمات، فتصبح ذخيرةً ثمينةً له، يستحضرها متى شاء، وبالشعر يمكن أن نغرس لدى الطفل الكثير من المفاهيم التربوية والعادات والأخلاق الحميدة، وننمي له الموروث النبيل والاعتزاز بتاريخه وإرث أمته الحضاري؛ مما يولد عنده رغبة كبيرة بالعمل بالدؤوب للاجتهاد وتطوير ذاته ومحيطه، كما يمكن للشعر أن ينقل للطفل الحقائق العلمية والمعلومات بأسلوب محبب بعيد عن التعقيد وجفاف المادة العلمية. إن الشعر قادر أكثر من أي فن أدبي آخر بحكم ملامسته

عاطفة الطفل على تنشئة طفل مفعم بالإيمان بأمته وقيمها، منظم ممتلئ حيوية ونشاطاً قادر على التحليل والتخيل.

في النهاية: هل تقدم الكتب الدراسية الشعر الذي يريده الطفل؟.. لن نجانب الحقيقة إن قلنا إن كتبنا الدراسية لا تقدم الأناشيد التي يرغب بها الطفل؛ فلو كانت تفعل، لما فقد الشعر مكانته بين فنون الكتابة الأخرى الموجهة له، ولما تدنت ذائقة الطفل إلى هذه الدرجة التي جعلته ينساق وراء الأغاني الهابطة وأغاني الإعلانات الرخيصة.

والذي يحصل أننا عندما نريد أن نعدَّ كتاباً مدرسياً يضم الأناشيد، نضع مجموعة من الفكر أو القيم التي نريد ونصنع لها نشيداً؛ بمعنى آخر نأخذ قطعة نسيج ونذهب إلى الخياط؛ ليصنع لنا ثوباً منها من دون الأخذ بعين الاعتبار نوع القماش ومناسبته للفصل وملاءمته للذي سيرتديه، والشكل الذي يفصل عليه، والأخطر الخياط الذي سيخيطه، وهل هذا عمله حقاً؟! (أما المدرسة فقد غادرت صفحات كتبها المقررة قصائد شوقي وحافظ ومطران وجبران والزهاوي والرصافي وعمالقة القصيد العربي، لتحل محلها قصائد ضعيفة يكتبها من ينتسبون إلى السلك التعليمي لا تنتمي إلى الشعر في شيء..) (10) وكثيرًا تخطئ الجهات المعنية عندما تكلف مدرساً غير موهوب أو موجهًا تربويًا أو اختصاصياً بإعداد نصوص نثرية، أو – وهذا الأخطر – قصائدَ شعرية مهما كانت خبرته طويلة، ومهما كانت شهادته رفيعة، تارة بدافع الحرص على المواقف التربوية وحيناً بحجة تخفيف النفقات ومداهمة الوقت للمعدّين، وبدل أن نأخذ نتاج شاعر مجيد فننتقي منه ما يفيد طفلنا ونتصرف ببعض الكلمات، صرنا نجعل من النظّامين المبتدئين شعراء نحشو بنتاجهم صفحات كتبنا وعقول صغارنا، فوصلنا إلى مرحلة نفرَ فيها الأطفال من كتبهم، إلى أول أغنية هابطة تلقفتها آذانهم المرهفة، لتمتعها ببعض من السلاسة في الكلمات واللحن، وصار من الصعب على الشعر الأصيل أن يجد له مكانًا عنده.

كل هذا أساء وبشكل كبير إلى الشعر الموضوع في المناهج، وإلى الطفل الذي أعدت من أجله فالقرار الإداري قد يصنع موظفاً جيداً أو إداريًا ناجحاً، ولكنه بأي حال من الأحوال لا يصنع قاصاً أو فناناً أو شاعراً، ولا يقدم - في أغلب الأحيان - فناً أدبياً راقياً....

المراجع والمصادر:

المختار من حماسة أبي تمام – مطبع بيبلي – وزارة الثقافة – سوريا 1978

الموسوعة الشعرية الاصدار الثالث – المجمع الثقافي – الامارات العربية المتحدة

المرجع السابق

أغنيات بطعم الليمون – موفق نادر – اتحاد الكتاب العرب – سوريا 2002

ديوان الأطفال – أحمد شوقي – الأعمال الكاملة – المجلد الثاني – دار العودة –بيروت 1988

من رأى العمال – محمد منذر لطفي – كتاب اسامة الشهري – وزارة الثقافة 1988

الأغاني – بيان الصفدي – اتحاد الكتاب العرب –سوريا 1982

الحمامة الصغيرة – زهير هدله – مجلة أسامة العدد 584 نيسان – 2000 سوريا

أغاني الأطفال – عبد الكريم الكرمي – دار الطفولة والشباب – دمشق، بيروت 1983

شعر الأطفال إلى أين: عبد التواب يوسف – القافلة – السعودية – أيار 1995

الحكاية .... وأثرها في تكوين الطفل

غسان كلاس

1- لا يختلف اثنان على أن جملة من المكونات تلعب دورها في بناء الأسرة، خاصة بعد إنجاب الأطفال، من حيث أساليب التربية والإعداد ومنهجياتها، وبالتوازي مع الاهتمام البيولوجي والفيزلوجي هناك مرتكزات تربوية ونفسية واجتماعية و... يجب وضعها في حسبان المربّي واعتباره، ضمن هذه الخلية من المجتمع (الأسرة) ولعله يقع على عاتق الأم هذا الأمر بدرجة أكبر، في مرحلة عمرية معينة، تضطلع بمهامها ومعطياتها أكثر من الأب الذي يكون له الدور النوعي في مرحلة عمرية متقدمة..

وغني عن القول الإشارة إلى كثير من الدراسات والأبحاث التي ألقت الضوء على ذلك، حتى في مرحلة مبكرة تكاد تكون مع بدايات الحمل وتكوّن الجنين... ونكتفي – هنا – بالإشارة إلى دور الحالة النفسية التي تعيشها، أو تتعرض لها، الأم الحامل.. كالاستماع لأنواع معينة من الموسيقا.. ومن نافلة القول تأثيرات الأطعمة التي تتناولها ..

2- مفهوم التثقيف يتباين حسب الأسر ومكوناتها الثقافية والتعليمية، وفيما إذا كانت الأسرة ريفية أو حضرية، أو ترجع جذورها وأصولها إلى أحد هذين المنبتين... ولكن مهما يكن الأمر، يبقى للمعلومات والتوجهات التي يتلقاها الطفل، في مراحل عمره المختلفة، الأثر الكبير – لاحقاً – في شخصيته ونموها، ومداركه واتساعها، وخياله وخصوبته...

ولابد من التمييز – هنا – بين مرحلتين أساسيتين :

قبل دخول المدرسة.

خلال المدرسة بمستوياتها ودرجاتها المختلفة ..

3- ومهما تعددت وتنوعت طبيعة المجتمعات، جغرافياً وتاريخياً واجتماعياً، تبقى الحكاية أو القصة التي تُسرد للطفل هي الرابط الأول بينه وبين المجتمع بكل تلاوينه وأشكاله.. مما يقتضي حسن اختيارها وانتقائها، لتكون ليست مسلية للطفل المتلقي فحسب، وإنما تستند على أسس تربوية ونفسية؛ فوفق الدراسات والأبحاث الموثقة هي تنطبع في ذاكرته ومخيلته. ومن هذا المنطلق يجب أن تنسجم مع المرحلة العمرية له، فتعلقه بشخوص القصة – وهي في البدايات شفهية غير مكتوبة أو مصّورة – يجعلها، أي الشخوص، موضع اهتمامه وترقبه لتناميها وأفعالها لاحقا...

4- وسواء كانت الحكاية أو القصة، شفاهة أو كتابة، لابد من حسن اختيار كلماتها ومفرداتها، لأن ذلك يشكّل قاموس الطفل الذي ستختزنه ذاكرته- وستكون الرافد والمعين له – لاحقاً – في تكوين الجمل والعبارات التي تمنحه مع تقدم العمر الزاد اللغوي في التراكيب والمصطلحات، وبصورة عامة في التعبير...

5- ولا يعني ذلك، بحال، التركيز على اللغة الفصيحة من دون اللغة أو اللهجة المحكية أو العامية؛ فهذه الأخيرة هي جزء من التراث الشعبي الموروث الذي يجب أن يتأصل في شخصية الطفل واليافع فيما بعد...

فمن القص الشعبي يتعرّف على خصائص بيئته ومجتمعه ومكوناتهما، ومنه يستلهم الكثير من العادات والتقاليد بجانبيها الإيجابي والسلبي عبر شخوص القصة أو الحكاية، وبالتالي يحب شخصية ما ويحاكي أفعالها وتصرفاتها، وينفر من شخصية ما لم يعجبه فعلها أو ممارساتها... ويأتي – في ثنايا ذلك – توجيه الذي يسرد ليكرس ذلك في حالتي الإيجاب والسلب...

6- وتتنوع الحكايات والقصص في إطارها الحكائي التوجيهي... وغالباً ما تتفق جميعاً على تجذير القيم والمفاهيم الأخلاقية، التي ليس أولها الاهتمام بالنظافة والنظام، وليس آخرها الابتعاد عن الغش والكذب والتدليس..

ولا شك في أن التاريخ، لكل أمة من الأمم، ملهم حقيقي ونبع ثر لذلك فإضافة إلى تعريف الطفل المتلقي تدريجياً بالوقائع والأحداث للتاريخ الذي يجب أن يفاخر به، يتعرف – من خلال القص – على شخصيات أثرت هذا التاريخ وصنعته وأغنته.. وبالمحصلة سيكون هؤلاء الأشخاص الذين صنعوا تاريخ البلاد قدوة وأسوة في وجدان الطفل يستقرون في كيانه، ويتنامى ارتباطه بهم مع تزايد معارفه وتوسع ثقافته التي ستتولاها المدرسة فالجامعة فالمجتمع..

7- في المرحلة التالية، التي بات فيها الطفل يعرف القراءة، يقع على الأسرة مسؤولية جديدة تتجلى في حسن اختيار الكتاب المطبوع والذي جهدت دور النشر على مدى سنوات لتطويره وتحسينه شكلاً ومضموناً؛ بدءاً من بعض الكلمات الملونة، مروراً ببعض الصور النافرة، انتهاء بالوصل بين الألفاظ والتراكيب، أو ملء الفراغات، أو ما إلى ذلك... حتى أن بعض دور النشر أوحت إلى الأطفال أنهم هم من يؤلفون القصة أو الحكاية، فيشعر كل طفل أنه قد حقق إنجازاً لافتاً يحفزه للمتابعة وتحقيق المزيد...

8- أما في إطار القصة المرئية، عبر الفضائيات أو الفيديو أو الحاسوب، فيقع على الأسرة مسؤولية غاية في الأهمية والدقة. فكما – لا يخفى – فقد تعددت القنوات وكثرت، وكما يقولون: بات العالم قرية صغيرة، وأصبحت هناك قنوات خاصة بالأطفال واليافعين والشباب وسواهم.. ومقابل ذلك يجب على الأسرة أن تكون مراقباً دقيقاً (كنترولاً) يحيط بذلك (الكونترول) الذي يمسك به الطفل، وهو أكثر ذكاء ومعرفة من أجيال سبقوه، دفعاً لتوجهات – عبر القنوات المشار إليها – لا تحمد عقباها...

9- يجب أن تحرص الأسرة على اصطحاب أطفالها إلى النوادي والملتقيات الثقافية التي تخصهم، وتنمي قدراتهم، وتعرفهم إلى معطيات الثقافة الطفلية في جو تشاركي مجتمعي يبنى على التعاون في رسم لوحة، أو إكمال حكاية، أو وضع نهاية لفيلم كرتوني أو سواه.... ويدخل، في هذا الإطار، الأفلام والمعارض، وخاصة أجنحة الأطفال في معارض الكتب، وكذلك المسرحيات.. إضافة إلى النزهات والزيارات الدورية للمتاحف والمنشآت الأثرية والتاريخية... وتكريس المعلومات في أذهانهم عبر قصص سمعوها أو شاهدوها..

10- من الأهمية بمكان أن يحتفظ الطفل في غرفته، وفي مكتبته الخاصة، بالقصص التي اشتراها أو اشتريت له.. ويجب أن نعلّمه، عندما تكون القصة مسلسلة، أن يحرص على تتابع أعدادها.. ومن المفيد، بصدد تكوين شخصيته وقدرته على الحديث والحوار، الاستماع إلى الطفل ملخصاً لما قرأ ومدى فهمه وتمثله ذلك...

11- إن الزاد الذي يتلقاه الطفل/ اليافع خلال سني عمره يحفّزه أحياناً محاولاً نسج حكاية أو قصة فيها الكثير مما سمع أو قرأ؛ فعلى الأسرة في هذه الحالة أن تشجعه على ذلك؛ وألا توجه له بسهام النقد بقسوة، فقد يكون مشروع كاتب أو قاص أو شاعر...

12- وخلاصة القول: تلعب الأسرة دوراً هاماً في تكوين الطفل، عبر الحكايات التي تسردها له، أو تسمح له بمشاهدتها أو قراءتها، وذلك يقتضي حسن الاختيار وجدية المتابعة، وصولاً إلى تكوين سوي وصحي في الإطار النفسي والتربوي، يوازي الاهتمام ببنيته وتكوينه البيولوجي والفيزلوجي...

القصة العلمية.. ما لَها، وما عَلَيها !

موفق أبو طوق

قد يكون هناك فارقٌ ما، بين (الأدب) من جهة، و(العلم) من جهة أخرى، وأكثر ما يكون هذا الفارق واضحاً، في الحقول التربوية والصفوف المدرسية، فالعلاقة بين الطفل الدارِس، ومفرزات الأدب والعلم المدروسَيْن، تتراءى مبكراً في المراحل الأولى من التعليم الأساسي.. والتوجّه الأدبي لدى بعض الأطفال، يجافي عادة التوجّه العلمي لدى بعضهم الآخر، فالأول يعتمد على الحفظ، وقوة الذاكرة، والخيال المجنح الذي يطير نحو آفاق بعيدة، أما الثاني فيعتمد على الفهم، وملكة التحليل والتركيب، والاعتماد على مفاهيم عملية تلتصق بأرض الواقع.

وقد يتبلور هذان التوجهان تماماً، مع وصول الطالب إلى المرحلة الثانوية، ففي الصف الحادي عشر، يقف الطالب على مفترق الطرق، فإما أن يختار الفرع الأدبي، أو يختار الفرع العلمي، ويتم الاختيار عادة حسب ميول الطالب ومؤهلاته المدرسية، وفي كلتا الحالتين، هناك برامج مخصصة ومناهج محددة تتوافق والفرع الذي تمّ اختياره.

وعلى الرغم من كل ما سبق، فإن الكثيرين من الطلاب يَجْمَعون بين هذين التوجّهين؛ أي التوجه العلمي والتوجه الأدبي، وبناءً على ذلك.. يجدون أنفسهم في حيرة أمام مفرق الاختيار، ولعل هذا الأمر يدفعنا إلى التساؤل : لماذا لا ندمج الأدب بالعلم؟! لماذا لا نشجّع أطفالنا على التواصل مع الاثنين معاً؟! لماذا لا نحاول من خلال تربيتنا المدرسية أن يكون لكل تلميذ ذهنية علمية متطورة؟! وذهنية أدبية متطورة.. أيضاً؟!

فالعلم أرقام، وتمارين، ومسائل، ونظريات.. وهو على أهميته وضرورته، قد يكون جافاً، ممضاً.. فهل باستطاعتنا ترطيب هذا العلم، وجعله لقمة سائغة، طرية، لينة، يمكن لذاكرة الطفل أن تبتلعها بكل يسر وسهولة ؟.

وهل باستطاعتنا أن نمزج علوماً بأدب، أو فرضيات بفن، فنجعل للجميع طلاوة (الشعر) وجاذبيته وحلاوته، وسلاسة (القصة) وإمتاعها وتشويقها وإدهاشها ؟.

هل باستطاعتنا أن نقدم المعلومة، ضمن إطار فني أخاذ، يأخذ بألباب الطفل، ويفتح شهيته إلى أقصى حد، فيقبل على الكتاب بكل جوارحه ومشاعره وأحاسيسه ؟.

وتأكيداً لما يسمّى نظرياً بـ (الدمج متعدد الوجوه)، علينا أن نقدم نماذج من القصص والحكايات العلمية (التي تعتمد على ((أنسنة)) اللسان والشفة والأسنان، وعدد من أعضاء الجسم، والأدوات التي يتعامل معها الطفل).. بأسلوب فني قصصي شائق.

ربما سبقنا الأولون في هذا المجال، فحاولوا أن يقدموا معلومات فقهية ولغوية وكونية، عبر أبيات من الشعر، مقفاة وموزونة، وذات موسيقا داخلية (الجواهر، الأرجوزات، الألفيات)، ولكن مضمونها ليس أدباً ولا فناً ولا مشاعر ولا عواطف، بل هو مضمون علمي بحت، تمت صياغة معلوماته عبر هذا الجنس الأدبي، وفي إطار فني كان جديداً في عصرهم.

واليوم يحاول عددٌ من أدبائنا المعاصرين، أن يحذو حذو من سبقوه، فيقدم المعلومة بطريقة القص الفني، فالأشياء والأعضاء والأجهزة تتكلم، وتتحرك، وتسافر، وتتوقف.. بغية تحريك خيال الطفل ودفعه إلى البحث والتساؤل !.

وبعض الأدباء يلجأ إلى تجزئة المعلومة المقدمة، أو إلى إضافة أحداث هامشية، أو إلى الإسهاب في المباني البديعة والمعاني الرفيعة، أو الإفراط في الصور البلاغية والمحسنات اللفظية، أو إلى الإكثار من الحوار بين شخوص القصة العلمية (حوار بين طبيب ومريض، حوار بين معلم وتلميذ، حوار بين أبٍ وابن، حوار بين عالم وجاهل).. وعلى الرغم من ذلك كلّه، تتميز المعلومة – في هذا النوع من القصص – من بين جميع الجمل التي تحيط بها، وتقفز أمام القارئ الصغير لتقول له بكل وضوح : هاأنذا !!..

على كل حال.. يبقى الأديب العلمي المتمكن، هو الأقدر على تبسيط معلوماته العلمية، وتحويلها عبارات سلسة مرنة، شائقة وماتعة، تمتزج مع غيرها من عبارات القصة، وتتواصل معها تواصلاً حميمياً لا انفصام فيه.. مؤدية بذلك وظيفتها العلمية، والتربوية، والفنية.. في آن واحد !.

ولن يكون ذلك إلا باجتماع الكفاءة العلمية، مع الكفاءة الأدبية.. عند الكاتب نفسه : الكفاءة العلمية.. التي تتجسّد في كاتب يحمل عقلية علمية، ويملك القدرة على استيعاب الحقائق والمعلومات التي تتعلق باختصاصه، وبالمحاور التي تتناولها قصصه العلمية.

والكفاءة الأدبية.. التي تتجلّى في الكاتب نفسه، المتمكّن من لغته وأسلوبه، والمتمسك بناصية الإبداع الفني، والقادر على التعامل مع الكلمات والمعلومات، وتحريكها وتحويرها وتدويرها، قدرة لاعب شطرنج ماهر، ينقل أحجاره بخفة وذكاء أمام منافسه.

ولقد قرأنا، وقرأ كثير غيرنا، نصوصاً أدبية مختلفة تروج لأفكار علمية، وتقدم للطفل ما يدفعه إلى اكتشاف العالم الذي يعيش فيه، عبر أسلوب القصّ الفني، وفي أغلب الأحوال تحاول هذه النصوص الالتزام بالحقائق العلمية والثوابت الكونية التي لا يمكن أن تتغير، وتبتعد قدر الإمكان عن أساطير وهمية يمّجها عقل راشد، وتصورات خرافية ينبذها فكر ثاقب.. فالنصّ الطفلي ملزم بحمل الإمتاع والفائدة معاً، وحين نقصّ أحد هذين الجناحين، يسقط هذا النصّ بسهولة، فلا الإمتاع وحده يكفي، ولا الفائدة وحدها تكفي، ولكن.. فوق هذا وذاك، هناك معلومة ما، نريد أن نضعها أمام الطفل، وهذه المعلومة يجب أن تُذكَر كما هي من دون تعديل أو تأويل، فكيف نفعل ذلك، مع مراعاة فنية القصة، وخيالها المجنّح، وتوجيهها غير المباشر ؟! وهذا – طبعاً – أولى إشكاليات القصة العلمية بمفهومها العصري !!.

* *

في جعبتي.. أسماء كثيرة لزملاء أدباء، ركبوا هذا المركب الصعب، ونُشرت لهم قصص تدور في هذا الفلك العلمي، ولقد كان لكل منهم أسلوبه الخاص في عرضه للحقائق العلمية.. وسوف أحاول – في هذه المقالة القصيرة – أن أسلّط الأضواء على تلك الأردية العلمية الموشاة بخيوط أدبية.. تلك الإبداعات التي لها طعم خاص ولون خاص، وتقف على الحدود المشتركة بين حقائق العلم من جهة، وزخارف الأدب من جهة أخرى.

- نبدأ بالزميل عزيز نصار، الذي كتب قصة بعنوان (القنديل)، وفيها يتحدث عن مجموعة من الأطفال، تريد السباحة في مياه البحر، ولكنها تتراجع فجأة حين ترى شكلاً مخيفاً يطفو على سطح المياه، يقول أحدهم : إنه قنديل البحر، قنديل البحر.. فيخرج الأطفال وقد ملأ الرعب قلوبهم الصغيرة.. ثم يجتمعون ليتساءلوا : ماذا يفعل قنديل البحر، وهنا تأتي المعلومة العلمية على لسان عدد من الأطفال الذين يصفون القنديل بأنه حيوان من الرخويات، فلا هيكل عظمي له، وليس له صدفة، يطفو على المياه السطحية، وتحيط بفمه خلايا لاسعة يقتل بها فرائسه، ولسعة القنديل الكبير مؤلمة للإنسان، وقد تؤدي إلى مرضه، وتؤكّد هذه المعلومات بوجود أحد القناديل أمامهم، بفضل زميلهم (حسان)، الذي التقطه باستخدام عودين يابسين.

القصة هنا تعتمد على الحوار، الذي يدور بين أطفال القصة، وكل طفل مشارك يقدم معلومة تفيد في بناء فكرة كاملة عن هذا الحيوان الرخوي، والحَدَثُ إجمالاً قليل في هذه القصة، لا يتجاوز رؤية الأطفال لقناديل البحر في أثناء سباحتهم، ثم التحلّق حول إحداها وهم يحاولون فهم طبيعة القنديل.

- أما قصة : (غلطة الشاطر)، للدكتور درغام سفّان، فهي تروي لنا كيف تناول الطفل أحمد تفاحة حمراء، وبدأ يقضمها بسرعة، من دون أن يلجأ إلى غسلها، فشعر بعد فترة بآلام شديدة في بطنه، وبعرق غزير يتصبب من جبينه، وعندما ذهب إلى الطبيب، أخبره بأنه مصاب بتسمم غذائي في معدته، من جراء تناوله الطعام الملوث، وأعطاه بعض الأدوية، ونصحه بأن لا يتناول بعد اليوم الفواكه والخضراوات، إلا بعد غسلها جيداً، وأن عليه أن يغسل أيضاً يديه قبل تناول الطعام.

والقصة هنا تعتمد على حَدَث قد وقع (تناول التفاحة الملوثة)، ثم حَدَث آخر قد جرى نتيجة الحَدَث الأول (تسمم غذائي)، ثم حَدَث ثالث مرتبط بهما يأتي فيما بعد، ألا وهو (اللجوء إلى الطبيب)، الذي قام بإجراءاته الروتينية التي اعتاد عليها في مثل هذه الحالة (أسئلة، واستفسارات، وفحوص)، وعندما استطاع الوصول إلى التشخيص، وصف له العلاج الشافي، مقترناً بنصائح طبية لابد منها، لتجنب تكرار هذه الحادثة مستقبلاً.

- وتأتي القصة الثالثة للزميلة مروة حلاوة، وهي بعنوان (هلا.. والمطر)، وفيها معلومات قيمة تستقيها الطفلة (هلا) من أمها.. إذ أمطرت السماء فجأة وهما في حديقة الحي، فكان لابد من أن تتساءل (هلا) عن حقيقة المطر، كيف يتشكل، كيف ينهمر، كيف يروي الأرض والمزروعات.. تقول الأم لابنتها بلغة علمية هي أقرب للغة المدرسية : الماء في الأنهار والبحيرات، يسخن تحت أشعة الشمس، ويبدأ بالتبخر.. أي يتحول إلى بخار، والبخار الساخن أخف من الهواء، فيصعد إلى أعلى، ويتجمع في السماء، ويشكّل الغيوم.. وعندما تصطدم الغيوم ببعضها، تتولّد شرارة كهربائية، تصدر ضوءاً شديداً هو البرق، يرافقه صوت قوي هو الرعد، وبسبب هذه الشرارة والبرودة، يتكاثف بخار الماء، فيعود إلى حالته السائلة التي نعرفها، فيصبح ثقيلاً، ويسقط على شكل حبات باتجاه الأرض، وهذه قصة المطر الحقيقية.. وتنتهي القصة بتعقيب الطفلة (هلا) : شكراً يا أمي لأنكِ أخبرتني الحقيقة، وأنا أحب المطر كثيراً لفوائده الكثيرة.

- أما القصة العلمية الرابعة، فهي للزميلة سعاد مكارم، عنوان القصة (فراشة ووردة)، وهي تعتمد على أنسنة الفراشة والوردة، إذ تقدم للطفل القارئ حواراً مطولاً يجري بين الاثنتين، وفي هذا الحوار تقول الوردة عن نفسها بأنها من الفصيلة الزيتونية، وأن لونها أبيض واضح، أو أبيض عاجيّ، أو أبيض مخضرّ.. وأنها عبارة عن نبات تزييني، يبدو على شكل أشجار متسلّقة، تتكاثر بالترقيد والعُقلة وبالبراعم الزهرية أحياناً.. وإجابةً عن الأسئلة المتتالية التي تطرحها الفراشة، تتابع الوردة حديثها : إن الناس يزرعونها في البيئة الرطبة، وكذلك في البيئة الجافة أو شبه الجافة، شرط أن تتوفر المياه كي تشرب.

وتؤكد الوردة أن أوراقها غزيرة، وتويجاتها كثيفة، ورائحتها منعشة، وأنها تحب التغذية الجيدة بالأسمدة العضوية أو الكيميائية، ولا تحب التلوث ولا الرياح المسرفة في سرعتها.

- وتقول قصة (أبناء السيل) للزميل عارف الخطيب، أن السيل مضى مسرعاً بعد أن خلّف ولدين، أما الأول واسمه (غدير)، فقد جرى سعيداً، وراح يروي الحقول والمروج، وينبت الأزهار والزروع، ويسقي العصافير والأشجار.. وأما الثاني واسمه (مستنقع)، فقد اختار مكاناً منخفضاً، حبس نفسه فيه، ورقد ساكناً لا يجري ولا يفيد، فتغير طعم مياهه، وتغير لونها، وتغيرت رائحتها.. فتداعى إليها البعوض والذباب، وأصبحت مرتعاً للجراثيم والأمراض، وهنا.. أيضاً، أتتنا المعلومات العلمية مباشرة، على الرغم من محاولة الكاتب (أنسنة) الغدير والمستنقع (أنسنةً جزئية)، عبر جعل فعليهما الضار والنافع، وكأنهما يصدران عن شخصين عاقلين يدركان ما يفعلانه، ويقصد كل منهما هدفاً يخالف هدف الآخر.

- والقصة السادسة بعنوان (مطر.. مطر)، وهي للزميل حيدر نعيسة، وفيها يربط بين أمطار السماء ودموع العين.. لكنه في النهاية يتحدث (علمياً) عن السدود التي تحجز خلفها المياه، فتمنع الطوفان، وفيضان الأنهار والسواقي والسيول، تحمي التربة، وتروي الزرع والغرس، وتولد مياهه الكهرباء، مياهه التي ولدت أصلاً بفعل الأمطار.

أجل.. كلها معلومات علمية مبسطة، جاءت على لسان (كنانة) بطلة القصة، التي تتحدث مع زميلتها (غنوة)، عن فائدة المطر الذي يحرمهما بهطوله من اللعب، ولكنه يكون سبباً في مجيء القمح والحبوب والخضار والفواكه، وغيرها من الخيرات التي لا تعد ولا تحصى، والتي لا يمكن الاستغناء عنها، أو حرمان أي كائن حي منها.

- ونأتي أخيراً إلى القصة السابعة، وهي للزميلة سريعة حديد، القصة تحمل عنوان : (طبيب الأسنان)، وهي تتحدث عن الطفل (عزيز)، الذي يتألم من سن نَخِرَة، مما يدفع والديه إلى الذهاب به إلى عيادة طبيب الأسنان.. والقصة تصف العيادة، وما فيها من غرف وأجهزة وأدوات، ثم تنتقل إلى المراحل التي يتم فيها تخدير السن، ثم قلعها من دون ألم، وكل ذلك يتم عبر عبارات علمية مبسّطة، تتخللها نصائح وإرشادات طبية ضرورية.

* *

طبعاً.. لم تستطع مجمل هذه القصص العلمية أن تحوز قصب السبق، ولم تستطع أن تصل إلى مرحلة الكمال، فالإشكالية في (عرض المعلومة عبر القص الفني) مازالت قائمة فيها، ولئن كان بعضها قد استطاع تجاوز الكثير من السلبيات، فإن بعضها الآخر قد أخفق في ذلك.. وفي النهاية، مازلنا تواقين إلى المزيد من هذه التجارب الإبداعية، التي تحاول الجمع بين الفن والمعلومة.

شخصية الحيوان في قصص الأطفال

◎ ميرنا أوغلانيان

تعدّ الحيوانات من الشخصيات التي غالباً ما تعتمد عليها قصص الأطفال، لاسيما تلك التي تتوجه للأطفال في سن مبكرة (من 3 إلى 6 سنوات). ومع أن الحيوانات مجردة من الملكات الأدبية، إلا أنها تسلك في قصص الأطفال سلوك الإنسان؛ و تتمثل صفاته أو بعضاً منها كالذكاء والغباء والحكمة؛ بل قد تكون ناطقة بشكل أو بآخر ممثلة بذلك شيئاً من صفات الإنسان سيئة كانت أم حسنة.

والحيوانات محببة لدى الأطفال في سن مبكرة؛ حيث لا يكون عامل المنطق قد تكّون لديهم بعد، ويختلط عليهم الحقيقي بالمتخيّل، ويصعب التمييز بينهما قبل سن معيّنة. وتشكل الحيوانات عالماً تخيلياً رائعاً للأطفال، ولا سيما إذا كانت تمتلك في القصص صفات غير واقعية، حيث يمكن للحصان أن يكون أزرق وللضفدع أن يتكلم، وللهر أن يرقص.

كانت الحيوانات منذ القدم شخصيات أساسية فاعلة في القصص الشعبية وقصص الأطفال، سواء أكانت حيوانات أليفة كالكلب والقطة والعنزة والديك أو حيوانات برية كالذئب والثعلب والتمساح والنسر والغراب، أو حتى حيوانات خيالية كالتنين والغولة، ومن منا ينسى حيوانات لافونتين أو كليلة ودمنة؟!.

وتُثير هذه الحيوانات مشاعر مختلفة لدى الطفل، تتراوح بين الخوف والشفقة والتعاطف مشكلة عناصر إبهار له تحفّز مخيلته وتفتح أمامه مساحات لا متناهية من الأحلام؛ فهي تتضمن شخصيات كترميز معين يربط بين سلوك الحيوانات وشكلها ودورها في القصة، لإيصال فكرة الخير والشر وقسوة الحياة وجمالها بسهولة إلى مخيلة الطفل وعقله الذي قد لا يتقبل هذه الأفكار إذا ما قُدّمت له بشكل منطقي توصيفي دقيق.

ولا تعدّ قصة الأطفال مشوّقة جاذبة للطفل إذا ما ابتعدت عن عالم الخيال؛ فالطفل قبل سن السادسة يميل إلى الخيال؛ حيث تعدّ القصة مرآة تعكس العالم الذي يحياه؛ فيجنح خياله إلى ربط شخصيات القصة من حيوانات بالأشخاص الذين يتعايش معهم يومياً فالثعلب لدى الطفل هو جارهم الشرير، والدجاجة الطيبة هي الأم التي تقدم النصح وتخرجه من مشاكله دائماً؛ ويتمنى لو أنه هو نفسه كالنمر الشجاع.

ومن الصعوبة بمكان تحليل كل ما ورد في قصص الأطفال من شخصيات الحيوانات نظراً لتعددها، إلا أن بعض هذه الشخصيات تتكرر بشكل كبير وملحوظ في قصص الأطفال والأدب الشعبي ودراسة عينة منها أمر مجدٍ على سبيل المثال لا الحصر.

1 ـ الحمار: يتردد الحمار عادة في قصص الأطفال كشخصية صبورة مضحّية في سبيل نزوات البشر الذين يطالبونه بالكثير بينما، لا يقدمون له إلا القليل، وبالتالي هو الحيوان الذي يستدرّ الشفقة والعطف، وإن كان يتصف ببعض الغباء أحياناً.

2 ـ الذئب: شخصية شريرة بامتياز، ومصدر للرعب لدى الطفل، فهو مصدر الشر والأذى والغدر والخداع، ويشكل الخطر الحاضر دائماً في الغابة، يؤذي البشر والحيوانات الأخرى. وغالباً ما تبدأ حكاية الذئب بلسانه المعسول الذي يخدع به فريسته حتى يوقعها في حبائله. ومن هنا تتشكل لدى الطفل مشاعر الكراهية والمقت تجاه الذئب، في حين يصل إلى قمة الفرح عندما تنتصر باقي الحيوانات عليه. إضافة إلى تنامي فكرة عدم التسرع في منح الثقة للغرباء مهما حاولوا الاستمالة.

3 ـ الهرّ: تحمّل قصص الأطفال الهرّ صفات آدمية كغيره من الحيوانات؛ إلا أنه غالباً ما يتصف في القصص بالخبث وخفّة الحركة، فهو صيّاد ماهر يقضّ مضاجع الفئران الضعيفة في الوقت الذي ترتعد فيه أوصاله من الكلب. وبالتالي يمثل جزءاً من الطبيعة البشرية؛ حيث يخيف الإنسان من هو أضعف منه ويخاف من الأقوى.

وإن اتخذ الهرّ في بعض القصص شخصية خيّرة؛ إلا أن طابع الخبث يغلّفه في قصص كثيرة، مع أن مشاعر الطفل تجاهه تبقى أقل كرهاً من تلك التي يكنّها للذئب، وقد يُعزى ذلك إلى أن الطفل يمكن أن يصادف هرّاً في حياته اليومية بإمكانه استعجاله بضربة مكنسة، بينما يبقى الذئب كائناً أكثر إخافة له لعدم تواجده في الواقع الملموس للطفل.

4 ـ الفأر: كائن صغير، يمثل بشكل أو بآخر أحاسيس الطفل تجاه الكبار. ويأتي حب الأطفال لشخصية الفأر من المعادلة التي تجمع بين صغر حجمه والذكاء الذي غالباً ما تسبغه عليه القصص، حيث ينتصر الفأر رغم صغره وضعفه على الهرّ المتربّص به. فيتعزز لدى الطفل مبدأ قدرة انتصار الذكاء على القوة، فيشعر بأنه -وإن كان صغيراً- فهو قادر على إيجاد حيّز مرض له في مجتمع يتحكّم بمفاصله وقراراته الكبار.

5 ـ الكلب: صديق الأطفال في القصص، فهو يحمي الدار من الأشرار ويتواجد مع الراعي وخرافه لصدّ اعتداءات الذئب المحتملة. ورمز الوفاء بامتياز؛ فهو لا يغدر بصاحبه؛ بل يحميه وينبهه من الأخطار، يناصر الضعيف فيحمي الفئران من جور الهرّ، وبالتالي يعزّز القيم الإيجابية لدى الطفل، وإن ورد ذكره في بعض القصص ككائن شرس يعض الأطفال، أو ككائن متسكع بلا مأوى إلا أن تأثيره الإيجابي يبقى صاحب الكفة الراجحة.

6 ـ الأرنب: رمز النشاط والحيوية؛ فهو ديناميكية القصة التي يتواجد فيها، حيث تستثمر قصص الأطفال سرعة حركته في تشكيل سيناريوهات حركية فاعلة ومرحة، تثير لدى الطفل مشاعر النشاط والحيوية. إلا أن الاستثمار الأكثر براعة لهذه الملكة لدى الأرنب تمثلت في ربطها بالغرور وما يجرّه على صاحبه من كوارث؛ حيث يعطّل غرور الأرنب سرعته الرهيبة في العدو، فيتكاسل لينتصر عليه كائن بطيء كالسلحفاة.

يشكل الأرنب للأطفال حافزاً للحركة وعبرة تبعدهم عن الغرور، لكن تأثيره بالمحصلة إيجابي عليهم ويحظى لديهم بشعبية كبيرة.

7 ـ الطاووس: رمز أزلي لجمال المظهر الخارجي في قصص الأطفال، فهو الكائن الذي يملك الحلّة الأجمل بين الحيوانات التي تتجسد في ريشه الجميل الملون.

غالباً ما ربطت قصص الأطفال بين جمال الطاووس وبين كسله وغروره، فتصفه في مواقف تحرك مخيلة الطفل بشكل مكثّف، فيُسقط ما تلقاه من قصة الطاووس على أرض الواقع، ليخرج بقناعة راسخة تتجذّر في عقله الباطن؛ ملخصها أن الجمال الحقيقي ليس هو الجمال الخارجي؛ بل هو جمال الروح والتواضع الذي يرتقي بصاحبه في حين لا يفيده الغرور.

8 ـ النّمِر: رمز الشجاعة والقوة والبأس. تشكل هذه الصفات دوافع معينة لدى الطفل تتمثل في رغبته في أن يكون قوياً وشجاعاً لا يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه، مشكلاً بذلك مثلاً أعلى له يخرجه رويداً رويداً من مخاوفه، ليحلّق عبر مخيلته في عوالم شاسعة من القوة والسيطرة والتحكم بالعوامل المحيطة.

فالطفل يجد ميلاً كبيراً نحو القصص التي تضيء جوانب الضعف لديه وتجد حلولاً لها، فالنمر لا يخشى الجوع؛ لأنه قادر على تأمين ما يلزمه من طعام، والنمر لا يخاف من الخطر؛ فهو مقاتل شجاع يمتلك من القوة ما يحميه.

قد يكون النمر أكثر شراسة في الواقع من الذئب؛ إلا أن القيم الإيجابية التي أغدقتها عليه معظم قصص الأطفال جعلته كائناً محبباً يجد لنفسه في خيال الطفل مرتبة أعلى بكثير من تلك التي يصنف فيها الذئب.

9 ـ الخلد: كائن يحرّك الكثير في شخصية الطفل عبر القصة، فهو وإن حُرم من البصر، يمتلك مواهب أخرى تمكنه من الاستمرار في الحياة، وبالتالي يعزز لدى الطفل القناعة بأن كل كائن يمتلك موهبة خاصة به تميزه عن الآخرين ممّن لا يمتلكونها، وبالتالي تعزز لديه القناعة بملكاته الخاصة والشخصية، وتخرجه من دائرة الغيرة من ملكات الآخرين.

10 ـ العصفورة: رمز الحرية بامتياز؛ فهي تطير وتحلّق وتكتشف العالم من حولها، لا تعني لها القيود والمسافات شيئاً خالقةً بذلك لدى الطفل رغبة عارمة في الطيران الذي يشكل بقيمته المطلقة رمزاً للحرية التي تتجسد في محور محدد يتماشى مع ذهنية الطفل، وهي حرية الانتقال والحركة.

ولعلّ الأخطار التي تتعرض لها من الطيور الجارحة أو من الحيوانات المفترسة الأخرى تنمي لدى الطفل مفهوم ارتباط الحرية بالمسؤولية والخطر، وبالتالي تشدّ تفكيره نحو ضرورة الحرص وتوظيف الحرية في إطارها الصحيح الذي يضمن السلامة.

11 ـ الصوص (الكتكوت): غالباً ما تصوره قصص الأطفال على أنه الكائن الضعيف الذي يتصارع في داخله ضعفه هذا مع رغبته في الاستقلالية وحب الاستكشاف. فهو يريد اختزال الزمن وحرق المراحل فيبدأ مبكراً بلا تفكير في اكتشاف العالم المحيط واستثمار حريته، في الوقت الذي لا يزال معتمداً فيه على والدته التي تؤمن له الغذاء والحماية.

ولعل الطفل يدرك تماماً مدى التقارب بينه وبين هذا الحيوان الصغير المتمرد؛ فالطفل أيضاً يجازف في استكشاف العالم المحيط ضارباً عرض الحائط بما يمكن أن يتعرض له من مخاطر سببها تبعيته لوالدته.

وعندما تنهار شجاعة الصوص لدى شعوره بالخطر بعيداً عن والدته التي تشكل مصدر الأمان والحماية، تتكثف المعطيات في عقل الطفل، ليخرج باستنتاج منطقي يقرّ بموجبه بضرورة الالتزام بمصدر الحماية، ريثما يكبر ويصبح قادراً على الاعتماد على ذاته.

12 ـ الجمل: أيقونة الصبر، وما من حيوان آخر سواه يمكن له أن يجسّد هذه القيمة ببراعة في قصص الأطفال؛ فالجمل يعيش في ظروف صعبة تتمثل في ندرة الكلأ والماء، ويؤدي رغم ذلك مهام مضنية من دون تذمر. يختزن القوت عند توفره للأيام الصعبة في سبيل الحفاظ على الحياة.

يعدُّ الجمل بالمطلق رمزاً محبباً لدى الأطفال، ينمي لديهم فكرة الصبر على السيء بلا تذمر أو عطلة، مبرزاً بشكل أو بآخر ضرورة اختزان مُعطيات الخير لاستثمارها في وقت الشدة دون إسراف.

13 ـ النملة: ومن سواها رمز للعمل الدؤوب، وهي التي تصبر على العمل الشاق الذي يتطلبه جمع قوتها لادخاره لأيام البرد، والنملة خير ما يمكن أن يعبر ذهنية الطفل، ليرسخ فيها ضرورة العمل في سبيل تأمين لقمة العيش، ويجذّر فيها ارتباط الحياة بالعمل؛ فمن لا يعمل لا يأكل، وبالتالي لا يعيش، موضحاً له عبر الرمز البسيط الفعّال أن العمل قد يكون شاقاً ومملاً؛ إلا أن نتائجه المرضية قادرة على مسح هذا الشقاء وبالتالي ينتفي في عقل الطفل مفهوم الأخذ المجاني لصالح الجدارة في العمل.

كما تؤكد قصص الأطفال عبر شخصية النملة على ضرورة العمل الجماعي الذي يعود بمردود أفضل من العمل الفردي، مما يعزز لدى الطفل روح الجماعة والتفاعل مع المجتمع بمنطق الفريق.

وما الحيوانات المذكورة سابقاً إلا نماذج قليلة يمكن تعميمها على غيرها من الحيوانات التي ارتكزت عليها قصص الأطفال، بما تحمله من قيم إيجابية أو سلبية.

فشخصيات هذه الحيوانات تجد طريقها بسهولة إلى عقل الطفل لنقل المعاني الأخلاقية أو التعليمية أو الأدبية ضمن إطار مشوق وجذاب. وإذا كانت المجموعة السابقة من شخصيات الحيوانات تُصنف ضمن خانة الحيوانات الحقيقية أو المألوفة؛ فإن الحيوانات الخيالية أيضاً لها دورها الكبير في شحذ قدرة الطفل على الخيال والتحليل والتركيب والاستقراء والاستنتاج، حتى لو لم يكن لها وجود حقيقي ملموس في بيئته، كحورية البحر والغولة والحصان المجنح، حيث نجد أنه يتوق إلى تأمل صور هذه الحيوانات الخيالية أو الخرافية المصوّرة ضمن المجموعة القصصية، وهذا أمر هام وضروري لتكوين صورة لهذه الكائنات لديه؛ فهو لن يستطيع الاحتكاك بها على أرض الواقع، على الرغم مما تفتح أمامه من آفاق عليها.

ومن المؤكد أن تأثير القصة على الطفل لا ينتهي بمجرد إتمام قراءتها؛ بل على العكس تبدأ مرحلة جديدة هامة يحاول فيها الطفل استرجاع أحداث القصة وصور أبطالها من حيوانات، محاولاً إيجاد التفاسير لسلوكهم أو تصرفاتهم أو مشاعرهم مستخلصاً بذلك العبر والدروس.

وقد يختلف تأثير شخصية الحيوان على الطفل، وقد تأخذ تأثيرات متباينة من طفل لآخر، كما قد تتناقض القيم التي تمثلها شخصية حيوان ما من قصة لأخرى أو من مجتمع لآخر، وهو أمر ينفي لدى الطفل نظرية التعميم ويؤكد الخصوصية.

إن استخدام الترميز عبر شخصيات الحيوانات في قصص الأطفال أمر له دوره في إيصال الأفكار والقيم، ولاسيما لدى الطفل قبل سن المدرسة؛ حيث يميل الطفل في هذه المرحلة العمرية إلى الحيوانات، ويتعامل معها بسعادة بالغة، ويشده سماع قصص عنها.

وإذا كان الترميز يتطلب إكساب شخصية الحيوان صفات لا تملكها في الطبيعة كالأنسنة مثلاً، يبقى هذا اللامنطق مقبولاً ومحبباً لدى الطفل الذي يقتنع تماماً في سنه هذا بأن الحيوانات والنباتات والجمادات تتكلم وتتصرف كالبشر، وتسلك ما يشبه سلوكهم.

لكن الهدف الرئيس لاستخدام شخصية الحيوان في قصص الأطفال يبقى كامناً في إيصال القيم الإنسانية للطفل بأسهل الطرق وأبسطها وأكثرها فاعلية؛ حيث تبدأ هذه القيم في التراكم لديه منذ سن مبكرة، لتتنامى وتأخذ أبعاداً أكثر شمولية، مشكلة بذلك شخصيته الفريدة المستقلة وقناعاته المستقبلية.

المراسلات:
الجمهورية العربية السورية - دمشق -ص ب(3230) - هاتف 6117241-6117240 -فاكس 6117244- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير. هاتف الاشتراكات 6117242

ثمن العدد داخل القطر 15ل.س - في الوطن العربي: 0,5 $ خارج الوطن العربي1$ أو ما يعادله. تضاف أجور البريد للمشتركين خارج سورية

الاشتراك السنوي -داخل القطر؛أعضاء اتحاد الكتاب العرب 500 ل س - للأفراد1000ل.س -وزارات ومؤسسات1217ل.س - في الوطن العربي:للأفراد300 ل.س أو30 $ - للوزارات والمؤسسات 4000ل.س أو40$-خارج الوطن العربي:للأفراد 6000ل.س أو 120$ - للمؤسسات7000ل.س أو140$ والقيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر اتحاد الكتاب العرب -دمشق ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الآراء والأفكار التي تنشرها الصحيفة تعبر عن وجهات نظر أصحابها

www.awu-dam.org
E-mail : aru@tarassul.sy

للنشر في الأسبوع الأدبي

يراعى أن تكون المادة:
- غير منشورة ورقياً أو عبر الشابكة.
- منضدة ومراجعة ومدقّقة مع مراعاة التشكيل حين اللزوم، وعلامات الترقيم.
- لا تتجاوز المادة المرسلة /800/ ثمانمئة كلمة.
- يرفق مع المادة (C.D) أو ترسل عبر البريد الإلكتروني.
- يرفق مع المادة الصور المناسبة إذا لزم الأمر.
- لا يرسل الكاتب أكثر من مادتين.

الموقف الأدبي في إصدار متجدد

يؤكد الأديب مالك صقور في افتتاحية العدد 494 حزيران 2012 أن التاريخ يرقد تحت قاع الذاكرة العربية الهشة، وتهجع معه المشاهد والأحداث:

المشاهد قبيحة أيها العرب

والأحداث فظيعة ومثيرة

والتاريخ!

من يقرأ التاريخ؟ التاريخ الذي لا قلب له، لن يرحم.

وقد ضم العدد الموضوعات الآتية:

البحوث والدراسات:

حركية الإبداع الشعري وإشكالية التصنيف النسوي ـ مها خير بك ناصيف/ إشكالية الهوية في شعر محمد عمران ـ محمد إبراهيم علي/ الإشكالات والأسئلة في روايات كوليت خوري ـ د. خليل الموسى/ القصة القصيرة واقع وآفاق ـ محمد باقي محمد.

نافذة:

رسائل إلى الأدباء الشباب ـ د. ثائر زين الدين.

الإبداع:

1ـ الشعر:

قلقي أنفاسَ جمرٍ راعفٍ ـ عبد اللطيف محرز/ عزف على نبض الانتماء ـ هاجم العيازرة/ نداء ـ د. نذير العظمة/ عزف على وتر السياب ـ أحمد محمود حسن/ ذاكرة الليل ـ سليمان السلمان/ من وجهة نظر البحر ـ قمر صبري الجاسم/ أسائلها يا شام ـ عبد الكريم شعبان/ أنا عربي ـ نادر بدر سليمان.

2ـ القصة:

إلى أبي ـ نهلة يونس/ تابوت ـ علي اسماعيل السليمان/ بدلة ـ محمد أبو حمود/ الحلم ـ خليل النابلسي/ الثعلب يتحالف مع أهل الدجاج ـ محمد جاسم الحميدي/ صغير من بلاد الغال ـ ترجمة آنا عكاش/ في منزل عتيق.. في حارة ضيقة ـ ياسين سليمان.

أسماء في الذاكرة:

وجيه البارودي (الطبيب الشاعر الذي حمل هموم أمته) ـ محمد عيد الخربوطلي

قراءات نقدية:

الشاعر المفكر واستلهام الثقافة البشرية ـ د. نزار بريك هنيدي/ حسن حميد في مدينة الله ـ د. يوسف جاد الحق/ العطب والبراءة المغدورة في (أوقات برية) لغسان كامل ونوس ـ ملك حاج عبيد/ العصف والسنديان أرض بلا حدود ـ محمد الحفري.

حوار العدد:

حوار مع المبدعة المغربية الدكتورة زهور كرام ـ حواس محمود.

كما صدر مع العدد كتاب الجيب، وهو بعنوان كان ياما كان لميخائيل نعيمة من اختيار وتقديم مالك صقور.

مسابقة ثقافية للشباب

يعلن فرع اتحاد الكتاب بدير الزور عن إجراء مسابقة ثقافية للعام /2012/ تحت عنوان (الأمن الثقافي) وذلك لمن لا تزيد أعمارهم عن خمسة وثلاثين عاماً من غير أعضاء اتحاد الكتاب العرب ويشترط أن تكون المشاركة:

1ـ باللغة العربية الفصحى وعلى ثلاث نسخ مرقونة على الكومبيوتر على وجه واحد من الورقة ومغفلة من اسم الكاتب.

2ـ ألاّ تكون قد فازت من قبل بمسابقة أو منشورة في أية دورية ورقية أو إلكترونية.

3ـ يوضع اسم الكاتب وعنوانه مفصلاً ورقم الهاتف وعنوان المشاركة في مغلف خاص.

4ـ يرفق المشارك صورة عن هويته أو صورة عن قيد النفوس.

5ـ تقديم المشاركات اعتباراً من يوم السبت الموافق 2012/6/16 ولغاية يوم الأحد 30 أيلول 2012.

6ـ هذه المسابقة للمحافظات الثلاثة (دير الزور ـ الرقة ـ الحسكة).

وسيتم تكريم الفائزين في موعد يعلن عنه لاحقاً وتقدم الجوائز المقدرة على النحو التالي:

1ـ للفائز بالمرتبة الأولى (7500) ل.س

2ـ للفائز بالمرتبة الثانية (6000) ل.س

3ـ للفائز بالمرتبة الثالثة (4500) ل.س

كما وتقدم شهادة تقدير.

الأسبوع الأدبي
جريدة تعنى بشؤون الأدب والفكر والفن
تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق
أسست وصدرت ابتداءً من عام 1986

المدير المسؤول: د. حسين جمعة
رئيس اتحاد الكتاب العرب

رئيس التحرير: غسان كامل ونوس

مدير التحرير: حنان درويش

المدير الفني: نضال فهيم عيسى

هيئة التحرير:
إسماعيل الملحم - د. حمدي موصللي - زهير هدلة
-د. عادل فريجات - عياد عيد - مريم خير بك

ليس آخراً

غسان كامل ونوس

إرهاب أيضاً!!

لا يستطيع المرء مهما ادّعى من الحياديّة، أو بلغ من السلبيّة، أن يتجاهل ما يجري من تناقض أو ازدواجية أو مواربة، أو يتغافل عما يكتنف الواقع العملي أو الافتراضي من تخبّط وتنافر وتضليل، فيما يتعلق بالمواقف الدولية والعربية تجاه الأوضاع في سورية.. ومهما كان الموقف السياسي من الحديّة والانحياز والاعتراض والمخالفة، فإن ما لا يمكن قبوله بأيّ ذريعة، التنكّر للوقائع، أو تجنّب الخوض في الحديث عنها واتّخاذ موقف بيّن منها، رغم كلّ ما فيها من جلاء ووضوح وإعلان وإعلام وحرائق وإجرام.. ولا سيما إذا ما كان الأمر يخالف المبادئ الأخلاقية والإنسانية بأيّ نسبة دنيا أو عليا، وحسب أيّ وجهة رؤية ذاتية أو موضوعية، خاصة أو رسمية أو عامة؛ ويتعارض مع شعارات متفق على صحتها ومشروعية المطالبة بها لأيّ إنسان وافَقَنا أو خالَفَنا، كحرية التعبير وإبداء الرأي والاعتقاد، ناهيك عن الانتماء مولداً وقناعات.. وعدم المساءلة أو المحاسبة على ذلك، مادام الأمر في نطاق السلوك السلمي والقانوني..

ولا يختلف هذا بين إنسان فرد أو جماعة، أو مؤسسة محلية أو على الصعيد الدولي.. ويكاد يكون الفجور الإعلامي أحد علامات هذا السلوك (الحضاري) الأممي في العقد الثاني من الألفية الثالثة، بعد آلاف من تسيّد هذا الكائن (العاقل) الذي خلق على مثال صورة الله، سدّة الكرة الحائرة المنكوبة!

لعلنا نستذكر –على سبيل المثال- كيف تداعى العالم (المتمدّن)، بما فيه العرب المتحمسون دائماً تبعيّة واستزلاماً واتفاقاً في النوايا الحاقدة والغايات القاتمة وخدمة «اسرائيل»، لتنفيذ أوامر الغرب في تسعينيات القرن الماضي، لمحاصرة (الإرهاب) وتجفيف مصادر تمويله، بعد عدد من العمليات الاستشهادية التي قام بها فلسطينيون مقهورون ضد المحتلين الصهيانة لوطنهم، ومنتهكي حقوقهم في العيش الحرّ الكريم في ديارهم المستباحة، بما فيها الديار المقدسة إسلامياً ومسيحياً.. وبعد أن ضاقت بهم السبل في ظلّ داعمي الاحتلال عسكرياً واقتصادياً وإعلامياً، وحماته في مجلس الأمن والجمعية العامة ومجالس حقوق الإنسان وباقي المؤسسات الدولية المرتهنة لأمريكا والغرب؛ فقد ضمت منتجعات شرم الشيخ قادة ورؤساء دول أجنبية وعربية، ما عدا قلة من بينها سورية! لمواجهة أحد وجوه المقاومة الفلسطينية للمحتلين، تلك المقاومة المشروعة في جميع الشبوتيات والمواثيق والأعراف؛ كما قامت الدنيا، ولم تقعد حتى الآن، حين ضُرب برجا التجارة العالمية في نيويورك منذ أكثر من عقد، وأحتلت دول، ودُمّرت مقدرات لبلدان وشعوب، وأزهقت مئات الآلاف من الأرواح البريئة؛ فيما هذا العالم ذاته الذي يدّعي الحرص على الشعوب وحقوقها وحرياتها.. يسكت عن العمليات الإرهابية الموصوفة التي تمت في عدد من المحافظات السورية، وحصدت المئات من أبناء الشعب السوري وشوّهت ويتّمت الآلاف.. وقليل من يذكرها بخجل وحذر وبعبارات عائمة غائمة؛ كما يسكت هذا العالم (الإنساني الديمقراطي) على انتهاكات حقوق الإنسان التي تنفذها بأبشع الأفعال والأشكال العصاباتُ الإرهابية المسلّحة تحت أيّ مسمى معارض، ويتجنّب الحديث عنها وعن شنائعها، محاولاً تقصّيَ أيّ أثر يبرئها، وفبركةَ شهود زور، وفق أسلوب بات مرصوداً للاتّهام والاستهداف في عمليات كبرى أو صغرى، قريبة أو مجاورة، حسب الرغبات والسياسات والمناسبات والخطط والمؤامرات والعدوانات.. بل إن عدداً من الدول الفاعلة أعلنت صراحة عن دعمها للقائمين بهذه الأفعال (أو للمعارضة التي تحالفهم أو تستخدمهم) مادياً وتسليحاً وإقامة وإعلاماً، وحماية في مجلس الأمن، ومحاصرة للدولة السورية في المحافل الدولية ومقاطعتها بل محاصرة الشعب السوري في تنقلاته وحاجاته الأساسية! وفيما المعارضون (السلميون) في سورية ينكرون أيّ دور لهذه الجماعات المسلحة، بعد أن خجلوا من إنكار وجودها (ومنهم من لم يخجل بعد!)، فسوّقوا لها أسماء ومسويغات، بعد أن صارت تعترف بأفعالها وتفاخر بـ(إعداماتها للمدنيين والعسكريين، وتدميرها للبنى الخدمية والتعليمية والاقتصادية) التي يندى لها الجبين وتطأطأ الرؤوس خزياً وعاراً، وتصرّ هذه المعارضات على إنكار مسؤوليتها في ذلك، أملاً في مكاسب تجنيها على حساب الدّم البريء والأشلاء المعفّرة والأنين المرّ، من دون أن يعرّج أيّ من رعاة المبادئ الخلّابة وأصحاب الشعارات البرّاقة على عمليات الخطف والقتل الممنهجة لمجرد الانتماء أو القول أو الشّبهة أو السكوت عن المشاركة في التخريب والفتنة والفوضى؛ ناهيك عن الإدانة والاستنكار!!

ويجب ألا ننسى استهداف الكفاءات والشخصيات المميزة غير المعروفة كثيراً، ما يذكّر بأعمال الموساد؛ (مثال: اغتيل في حمص المخترع السوري الفذّ عيسى عبود يوم 2011/4/18 أي بعد نحو شهر فقط من الأحداث وهو من ريف المحافظة ولم يتجاوز السادسة والعشرين!!).

وإذا كانت مسوّغات المعارضين في ذلك تندرج في إطار (عدم الخوض في معارك جانبية!) كما يصرح بعض رموزهم، رغم أن الأمر يدخل في صميم الأشياء مفهومات وقناعات وسلوكات.. ويؤكدون (ضرورة التركيز على العدو الأساسي)؛ بل الوحيد؛ وليس الكيان الصهيوني طبعاً؛ بل لم يعد هذا الكيان الغاصب المحتل لبعض أرضنا السورية أيضاً في قائمة الأعداء الثانويين؛ إنما بات مناصراً للشعب السوري و(ثواره) ويدعو معهم إلى التدخل العسكري الخارجي؛ هم الذين يعلن بعض قادتهم عن عزمهم إقامة علاقات معه؛ هذه العلاقات التي باتت واقعاً ولم تعد تكهّناً أو تحليلاً؛ فإن أيّ تسويغ لا يصحّ أمام سكوت هؤلاء المعارضين -وسواهم من المعارضين تحت الطلب أو الانتظار- عن الإرهاب الفكري المتمثل بعمليات القتل أو الدعوات إليه لشخصيات ورموز فكرية أو ثقافية أو علمية.. ومنها من لم تكن (موالية) يوماً؛ ادونيس مثلاً!! هذا الأمر الذي لا يمكن أن يقبله، أو يتغافل عنه، أو يتجنبه بلا إدانة واستهجان ومواجهة، كائنٌ لديه بقايا حسّ إنساني في سورية وخارجها!!

***

gassan.k.w@mail.sy